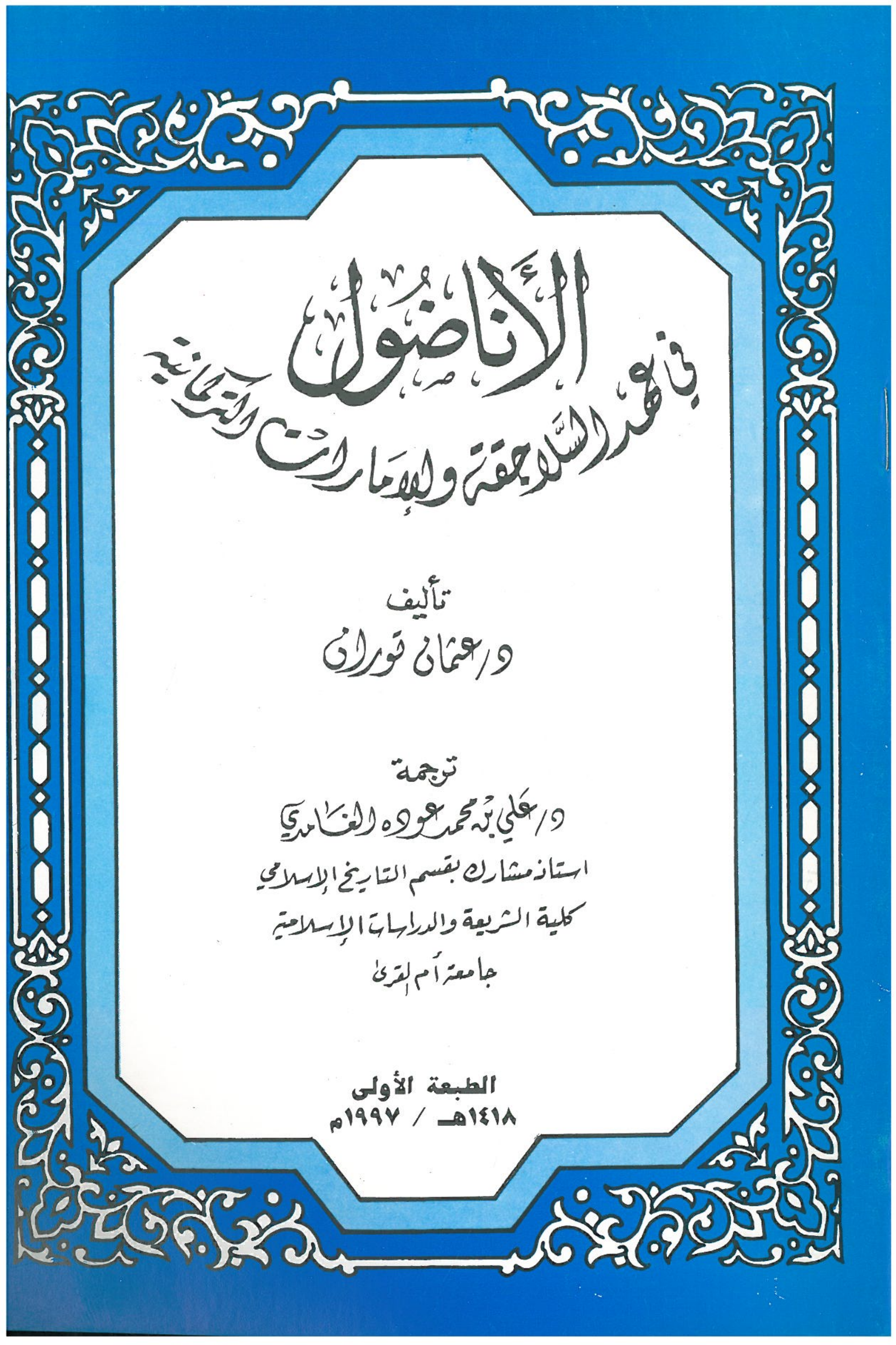


الأناضول في عهد السلاجقة والإمارات التركمانية

تأليف

د/ عثمان توران

ترجمة

د/ علي بن محمد عوده الغامدي

استاذ مشارك بقسم التاريخ الإسلامي

كلية الشريعة والدراسات الإسلامية

جامعة أم القرى

الطبعة الأولى

١٤١٨هـ / ١٩٩٧م

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

توران ، عثمان

الأناضول في عهد السلاجقة والامارات التركية / ترجمة علي بن محمد عودة الغامدي .ـــ مكة المكرمة.

... ص ؛ .. سم

ردمك ٢-٤٠٠-٣٤-٩٩٦٠

١ - الاناضول (تركيا) - تاريخ اسلامي   ٢ - الدولة السلجوقية

أ - الغامدي ، علي بن محمد عودة (محقق)   ب - العنوان

ديوي ٩٥٣،٠٧٣٩١   ١٨/٢٠٥٥

رقم الإيداع : ١٨/٢٠٥٥

ردمك : ٢-٤٠٠-٣٤-٩٩٦٠

الأناضول في عهد السلاجقة والإمارات التركمانية

تأليف

د/عثمان توران

ترجمة

د/ علي بن محمد عودة الغامدي

استاذ مشارك بقسم التاريخ الإسلامي

كلية الشريعة والدراسات الإسلامية

جامعة أم القرى

الطبعة الأولى

١٤١٨هـ / ١٩٩٧م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المترجم

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده ، وبعد :

يُعد تاريخ تركيا في عصر سلاجقة الروم والإمارات التركمانية من الفترات المهمة في التاريخ الإسلامي . وقد ظل هذا التاريخ يكتنفه الغموض إلى عهد قريب . ولا يمكن بحال فهم كيفية قيام الدولة العثمانية دون فهم تاريخ هذه الحقبة . ولذلك نجد بعض الباحثين في تاريخ الدولة العثمانية يرددون بعض الخرافات والأساطير عند حديثهم عن قيامها ، مثل خرافة أن السلطان علاء الدين الأول هو الذي أقطع أرطغرل والد عثمان بعض الأراضي في غرب آسيا الصغرى . أو أن أرطغرل شاهد مع أفراد قبيلته معركة تجري بين جيش علاء الدين والبيزنطيين فانضموا إلى جيش علاء الدين الضعيف وهزموا البيزنطيين فأقطعهم السلطان علاء الدين اسكي شهر ومن هنا قامت الدولة العثمانية عندما عهد علاء الدين لعثمان بالإمارة بعد وفاة أبيه . وكل هذه الروايات وما تفرع عنها من قصص لا أساس لها على الإطلاق من الواقع التاريخي . وليس المجال هنا لنقض تلك الروايات التي أصبحت داحضةً بعد الدراسات العلمية الموثقة التي أجراها الأستاذ عثمان توران ، ومحمد كوبريلي ، وعلي سويم ، وكلود كاهن ، وفريونس ، وغيرهم ، في ضوء المصادر والوثائق والنقوش العائدة لعصر سلاجقة الروم والإمارات التركمانية . ومن هنا فإن الإلمام بتاريخ الأناضول في عصر السلاجقة والإمارات التركمانية التي تكونت في تلك البلاد إبان ضعف وانهيار دولة سلاجقة الروم ، مهم جداً لمن يريد أن يفهم كيف قامت الدولة العثمانية . فتاريخ هذه الحقبة هو المُمَهِد لفهم تاريخ الدولة العثمانية ونظمها العسكرية والاقتصادية .

وبالإضافة إلى هذا فإنه لا يمكن فهم تاريخ الحروب الصليبية

وتطوراتها في العصور الوسطى دون فهم تاريخ الأناضول في عهد سلاجقة الروم والإمارات التركمانية ، نظراً لأن فتح الأناضول وانتزاعها من البيزنطيين كان من الأسباب الرئيسة التي أدّت إلى الدعوة في غرب أوربا لشن الحروب الصليبية ، كما قام أتراك الأناضول بأدوار بارزة وحاسمة في مواجهة العديد من الحملات الصليبية التي عبرت إلى هذه البلاد بهدف الوصول إلى الأراضي المقدسة في بلاد الشام ، وكان لذلك أبعد الأثر في سير الحركة الصليبية بكاملها .

ويُعتبر الأستاذ عثمان توران من أشهر المؤرخين المحدثين المتضلعين في تاريخ الأناضول في عهد السلاجقة والإمارات التركمانية . وله في هذا الموضوع كتب وبحوث كثيرة باللغات التركية والانجليزية والفرنسية ، كما نشر ودرس معظم الوقفيات والوثائق العائدة لعصر سلاجقة الروم . ومن أشهر كتبه وأكبرها حجماً كتابه بالتركية عن تاريخ « تركيا في العصر السلجوقي » ويقع في أكثر من ٧٥٠ صفحة . وهذا البحث الذي قمت بترجمته عن الانجليزية يمثل خلاصة أبحاثه عن هذه الحقبة وقد نُشِرَ في موسوعة كمبردج ، في الجزء الخاص بالتاريخ الإسلامي :

The Cambridge History of Islam, Vol. IA, Cambridge . 1980. pp 231-262.

وأرجو أن يكون في ترجمة هذا الموضوع الفائدة للدارسين والباحثين في التاريخ الإسلامي إبان هذه الحقبة ، والله ولي التوفيق .

المترجم
د/ علي بن محمد عودة الغامدي
جامعة أم القرى
مكة المكرمة
١٠/٣/١٤١٨هـ

فهرس المحتويات

الأناضول في عهد السلاجقة والأمارات التركمانية

يعتبر تأسيس امبراطورية السلاجقة العظام ، وسيطرة الترك على العالم الإسلامي نقطة تحول في تاريخ الحضارة الإسلامية والشعوب المسلمة . وكان العالم الإسلامي آنذاك يعاني أزمة مؤلمة داخلياً وخارجيا . ولكن السلاجقة ، وكقوة جديدة ، أعادوا له وحدته السياسية ، وبواسطة العناصر الجديدة التي جلبوها ، منحوا الحضارة الإسلامية حيوية دافقة وبدأوا طوراً جديداً .

ولا شك أن احدى التغييرات الأساسية التي حدثت بعد قيام امبراطورية السلاجقة العظام هي فتح وتتريك الشرق الأدنى خصوصاً الأناضول . وكانت الأناضول موطناً لكثير من الشعوب ، ومسرحاً لحضارات كثيرة ، كما أنها حلقة الوصل بين ثلاث قارات ، ومنذ فجر تاريخها وإلى الآن – وعلى الرغم من استمرار تأثيراتها المحلية – فقد خضعت الأناضول لكثير من التحولات العرقية والدينية ، واللغوية والثقافية ، وقد أعطى تأسيس امبراطورية السلاجقة العظام أهمية بالغة لدور الحضارة الإسلامية ولتاريخ الترك . كما أن تتريك الأناضول يساوي في أهميته الفترة التالية لسقوط هذه الامبراطورية . وعلى حد سواء فقد حمى خلفاؤهم الحضارة والشعوب الإسلامية ، كما قرروا بشكل مؤكد مستقبل الشعوب الإسلامية والمسيحية . والبدايات التاريخية لدور الامبراطورية العثمانية تتكشف بهذه المرحلة ، وعلى الرغم من أهمية تاريخ سلاجقة الروم فقد ظل يكتنفه الغموض . ولكن فقط في عصرنا أخذت أهميته التاريخية شكلاً مفهوماً .

الهجرة التركية والغارات الأولى على الأناضول

بدأ وجود دولة السلاجقة في الأناضول سنة ٤٦٧هـ/١٠٧٥م ، بعد خمس وثلاثين سنة على تأسيس امبراطورية السلاجقة الكبرى في إيران . وقد

جاءت هذه الحادثة في أعقاب نصر مانزكرت ٤٦٣هـ/١٠٧١م ، والذي أدى إلى هجرة كبرى من قبل السكان الترك . وقد بدأت غارات الغز على الأناضول في سنة ٤٠٩هـ/١٠١٨م ودامت إلى سنة ٤٣٢هـ/١٠٤٠م ، ولكن لم يكن لذلك أهمية تاريخية إذ كانت مجرد غارات استطلاعية ، ولكن المعارك التالية الممتدة فيما بين تأسيس امبراطورية السلاجقة ومعركة مانزكرت ، هي التي لعبت دوراً حاسماً في انتزاع البلاد وتحطيم المقاومة البيزنطية ، وتمهيد الطريق لاستقرار الترك في الأناضول .

كانت احدى المشكلات التي تحتم على الامبراطورية السلجوقية معالجتها منذ تأسيسها هي إيجاد الأرض وموارد الرزق للعدد الكبير من المهاجرين التركمان ، وقد فكّر سلاطين السلاجقة العظام أمثال طغرل بك (٤٢٩-٤٥٥هـ/١٠٣٨-١٠٦٣م) وألب أرسلان(٤٥٥-٤٦٥هـ/١٠٦٣-١٠٧٢م) وملكشاه (٤٦٥-٤٨٥هـ/١٠٧٢-١٠٩٢م) في تهديد التركمان للقانون والنظام بإرسالهم للغارات على الأناضول ولكنهم أيضاً لم يمنعوهم فحسب من نهب الأقاليم الإسلامية ، بل زودوهم بالقوة للعمل ضد ممتلكات الامبراطورية البيزنطية سيما وأن ذلك يكفل لهم سبل العيش . وبذلك جاء فتح وتتريك الأناضول ضرورة سياسية ، برغم أن بعض الحكام المسلمين الجاهلين بطبيعة الدولة التركية ونظامها الإقطاعي البدوي شكوا لطغرل بك غارات التركمان ونهبهم لمناطقهم باعتباره سلطاناً للمسلمين ومسؤولاً عن كبح جماح التركمان .

وبما أن نتيجة السياسة السلجوقية توجه هجرة التركمان نحو الأناضول ، فقد كانت هذه البلاد ضحية للهجمات التركية والضغط لفترة ثلاثين سنة . وكان التركمان يلقون التشجيع ، أحياناً ، من قبل السلاجقة ، ولكنهم ، في الأغلب ، عملوا تحت قيادة مقدميهم . وبدأت غاراتهم من أذربيجان وتغلغلوا عبر البلدان الشرقية والغربية للأناضول . ولم تؤد هذه الغارات الطويلة

المستمرة ، والمعارك فقط إلى انتزاع السهول والهضاب المنبسطة ولكنها أدت كذلك إلى انتزاع البلدان مثل ، أرضروم في سنة ٤٤٠هـ/١٠٤٨م ، وكارس في سنة ٤٤٦هـ/١٠٥٤م ، وملطية في سنة ٤٤٩هـ/١٠٥٧م ، وسيواس في سنة ٤٥١هـ/١٠٥٩م ، وقيصرية في سنة ٤٥٩هـ/١٠٦٧م ، ونكسار وقونية وعمورية في سنة ٤٦٠هـ/١٠٦٨م ، وهوناس في سنة ٤٦١هـ/١٠٦٩م . وعلى الرغم من هذا التوسع الذي استمر حتى انتصار مانزكرت ، فما زالت الأناضول بعيدة عن استقرار الترك بها ، نظرًا لأن عددًا كبيرًا من القلاع والمدن ظلت محصنة فضلاً عن القوات البيزنطية التي كانت تلاحق التركمان عن كثب ، ولهذا السبب كان التركمان يعودون أدراجهم إلى آذربيجان بعد هجماتهم وفتوحهم .

استيطان الترك في الأناضول

حينما تحطمت المقاومة البيزنطية نتيجة لنصر مانزكرت في ذي القعدة ٤٦٣هـ/أغسطس ١٠٧١م بدأ التركمان ينتشرون ويستقرون في الأناضول . وشعروا بدورهم كمدافعين عن الإسلام ومقاتلين لتحقيق السيطرة التركية الشاملة ، وقد وافق ذلك هوىً في نفوس سلاطين السلاجقة الأُوَلْ لفرض سيادتهم على بيزنطه ، إضافة إلى حل مشكلة الهجرة التركية . وحينما أدت هزيمة الامبراطور رومانوس دايوجينيس إلى خلعه ، وتحطم الصلح الذي وافق عليه ، أرسل له ألب ارسلان رسالة يقول فيها : بأنه سوف يذهب بنفسه إلى الأناضول للانتقام له ، وحالت وفاته ٤٦٥هـ/١٠٧٢م خلال حملته على تركستان دون تحقيق تهديده . وبرغم ذلك فإنه أخبر قادته قبيل حملته بأن السلام مع بيزنطه قد انتهى ، وكانت أوامره لهم بأن يفتحوا البلاد المسيحية (الأناضول).

عقب معركة مانزكرت تغيرت وبسرعة مفاجئة المعالم العرقية للأناضول وبسبب الهجرة التركية الضخمة ، فإن الاستيطان لم يُدرس ولم يُفهم ، ولذلك بقيت عملية التتريك في الأناضول غامضة . فبعض المؤرخين يعزون هذا التحوّل

إلى إبادة السكان المحليين أو اعتناقهم للإسلام . وقد كانت تلك التحولات الفعلية وخسائر السكان في كلا الجانبين البيزنطي والتركي في فترة قصيرة بحيث أصبح من العسير إعطاء تقدير دقيق لتلك الهجرة والتغييرات العرقية التي حدثت ، وإنما يمكن حدس ذلك برسم صورة عامة للموضوع قريبة مما حدث فعلاً بقدر الإمكان(١) .

على الرغم من أنه تبع نصر مانزكرت تدفق كبير للسكان إلى الأناضول ، فإن تحول هذه البلاد برمتها إلى وطن تركي استغرق قروناً أخرى . فالتركم الذين فروا أمام المغول من أواسط آسيا وإيران شكلوا ثاني هجرة ضخمة ، كما أن عملية التتريك انتشرت من وسط الأناضول إلى السواحل ، واكتملت خلال القرنين السابع والثامن الهجريين / الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين . وكان هذا الارتحال للسكان قاعدة أساسية للعناصر البدوية . وقد صاحب تأسيس دولة السلاجقة الغربية قدوم الفلاحين والتجار والصناع والأئمة كجزء من تلك الهجرات . وهذا أوجز وصف لتمصير الأناضول بواسطة الترك .

---

(١) بحسب الرواية التي ترى أن ذلك التحوّل حدث سنة ٤٧٣هـ/١٠٨٠م ، أي بعد سبع سنوات من وصولهم إلى المضايق إذ كان من السهل عليهم قطع الطريق حتى قبل أن يستقروا ويؤسسوا دولة . ولكن هذا غير صحيح ، فما ظهر من المصادر الشرقية عن تاريخ الترك وبداوتهم لا يكفي حتى لوضع بداية محددة للامبراطورية السلجوقية الكبرى ، لأن القبيلة البدوية لم تكن ترى ضرورة لحياة الاستقرار ، كما أنه لم يكن لهم موطن معين يستطيعون العودة إليه ، إضافة إلى أن الخطأ الآخر في هذه الفكرة ناشئ عن الجهل بالسياسة السلجوقية فيما يتصل بالفتح والاستقرار في الأناضول وبالمطالب الأساسية لذلك (ما عدا حملة ألب أرسلان على بلاد الشام) إذ أن سلاطين السلاجقة لم يكن لهم تصميم على فتح الأناضول .

تأسيس دولة سلاجقة الروم

تأسست دولة سلاجقة الروم على أثر – وبسبب – ارتحال أعداد ضخمة من قبائل التركمان نحو الأناضول . بيد أن مؤسس هذه الدولة سليمان ابن قطلمش (حفيد سلجوق وابن ارسلان يبغو) لم يكن ضمن القادة الذين أرسلهم الب أرسلان بعد انتصار مانزكرت . وفي الواقع أن من بين الفاتحين المشار إليهم في المصادر كمؤسسين للدولة أرتق بك ويمكن إثبات ذلك . ففي سنة ٤٦٤هـ/١٠٧٢م هزم ارتق بك الجيش البيزنطي بقيادة اسحاق كومنينوس وأخذه أسيرًا ، وسار إلى ضفاف نهر ساكاريا تاركًا مركز الأناضول خلفه . وحينما حدثت ثورة حنا دوكاس وأضحى الموقف أكثر خطورة عقد الامبراطور البيزنطي اتفاقية مع ارتق بك وطلب مساعدته ، وبهذه الطريقة وصل الترك إلى خليج أزمت . وبسبب نزاع الوراثة بعد وفاة الب ارسلان ، عاد ارتق بك أدراجه إلى الري عاصمة امبراطورية السلاجقة العظام وساعد ملك شاه في التغلب على عمه .

على أن وفاة الب ارسلان وعودة ارتق بك إلى العاصمة للإسهام في إعادة الترابط بعد النزاع الذي اندلع على وراثة العرش تشبه في حوادثها حملة سليمان على الأناضول . كان قطلمش قد هُزِم وقتل سنة ٤٥٥هـ/١٠٦٤م في نهاية قتاله ضد الب ارسلان في سبيل العرش . وابتعد ابناؤه عن الوطن إلى التخوم البيزنطية . وكانَ هؤلاء الأمراء الصغار بدون أية قوة فبدأوا بتنظيم تركمان الأناضول حولهم ، وذلك عقب رحيل ارتق بك ، وبعض هؤلاء التركمان لم يكونوا من قبائل اليابغولو (ياوكيه ، ياويجيان) القبائل التي تمردت ضد طغرل بك والب ارسلان وهربت إلى الأناضول(١) . وفي هذا الوقت احتاج

---

(١) هذا الإسم ، الذي يطلق على الثوار من أتباع أرسلان يبغو ، ومن الخطأ نسبتهم إلى قبيلة الييفا .

هؤلاء التركمان إلى أمير سلجوقي لقيادتهم ، ومنذ وقت مبكر أضفوا على بروزهم صبغة الشرعية بالظهور على مسرح أبناء قطلمش وكان ذلك سنة ٤٦٧هـ/١٠٧٤م عندما تورطوا في معركة في بلاد الشام ضد التركمان (الياوكيه) بقيادة اتسز الذي وافق على الخدمة تحت امرة السلطان ملك شاه. كما حاولوا أيضاً إنشاء علاقات مع الخلافة الفاطمية في مصر . وبعد اخفاقهم في كسب هذه المعركة ، دخل سليمان الأناضول ، وحاصر في طريقه حلب وانطاكية ، ثم ذهب وانتزع قونية ومنطقتها من حكامها اليونانيين ، وفتح أزنيق (نيقية) بدون أية مقاومة ، وأعلنها عاصمة له سنة ٤٦٧هـ/١٠٧٥م . ومن المرجح أن طوطاك الذي زحف على اقليم بيثينيا على رأس ١٠٠ر٠٠٠ رجل بعد رجوع ارتق ، انضم إليه أيضاً .

وكانت الامبراطورية البيزنطية في حالة سيئة إضافة إلى أن علاقاتها بالأناضول قد قُطِعَت ، لدرجة أن فتح مدينة مثل ازنيق التي لعبت دوراً مهماً في تاريخ المسيحية والتي كانت قريبة جداً من القسطنطينية مر بدون أي تعليق من المصادر البيزنطية . وكانت تلك المصادر قد أشارت إلى مناسبة وراثة نقفور الثالث بوتانياتس العرش في سنة ١٠٧٨م ، بسبب انتمائه إلى سليمان ، وهذا يشير إلى أن ذلك الفتح لازنيق قد حدث قبل هذا التاريخ . ومما يعزز هذا رواية بعض الكتاب المسلمين التي وعلى الرغم من بُعدها فإنها تذكر أن فتح ازنيق كان سنة ٤٦٧هـ/١٠٧٥م(١) . وعندما أسس حفيد السلاجقة العظام الدولة في هذه البلاد التي فتحها أخيراً ، وافق تركمان الأناضول على سيادته ، ولما سمعت القبائل البدوية بذلك هاجرت إلى هذه البلاد في أعداد أكبر وربطت بين الهجرة الكبرى في سنة ١٠٨٠م وبين تأسيس هذه الدولة .

---

(١) حتى وقت متاخر . كانت التواريخ المتداولة ١٠٧٧م ، ١٠٧٨م ، و ١٠٨١م .

وفي فبراير ١٠٧٤م استغاث الامبراطور ميخائيل السابع بالبابا جريجوري السابع طلباً للمساعدة ، ووعد بإعادة توحيد الكنيسة الأرثوذكسية مع الكنيسة الكاثوليكية ، وقد رحب البابا بهذا التقارب ، ودعى ملوك أوربا الرئيسيين وجميع العالم المسيحي إلى حملة صليبية ضد الترك الذين انتزعوا بلدان الامبراطورية البيزنطية وأحدقوا بأسوار العاصمة القسطنطينية ، ولكن النزاع بين البابوية والامبراطورية الرومانية المقدسة أجّل تنظيم الحملة الصليبية قرابة عشرين سنة . وعندما يئس الامبراطور من مساعدة أوربا أرسل في سنة ٤٦٦هـ/١٠٧٤م سفيراً ومعه هدايا نفيسة إلى ملك شاه ولكن جميع تلك المحاولات لم تثمر عن نتائج عملية .

وقد زاد سليمان من قوة دولته بتدخله في منازعات السلالات الحاكمة في القسطنطينية ، فساند ادعاءات نقفور الثالث بوتانياتس في العرش ، وبهذه الطريقة وسّع حدوده وجعل مركز قيادة جيشه في اسكودار (كريسبولس) سنة ٤٧١هـ/١٠٧٨م . وأخيراً وعن طريق تأييد نقفور بوتانياتس استولى سليمان على تلك الأجزاء من فريجيا وغربي الأناضول والتي لم يفتحها قبل ذلك . وفي سنة ٤٧٣هـ/١٠٨٠م هزم السلاجقة الجيش البيزنطي المرسل نحو ازنيق سنة ١٠٨٠م . وأضحى ذلك الجيش محصوراً على الشاطئ الآسيوي للبوسفور . وعند إنشاء السلاجقة الجمارك بدأوا في التحكم في شحنات السفن ، غير أنهم لم يمتلكوا اسطولاً في البحر الأمر الذي حال بينهم وبين مهاجمة القسطنطينية . وعندما أصبح الكسيوس كومنين امبراطوراً سنة ١٠٨٠م كان أول عمل قام به هو عقد معاهدة سلام منظمة مع سليمان كيما يتفرغ للدفاع عن البلقان ضد الشعوب التركية الشامانية شمالي نهر الدانوب . وقد مكنت هذه المعاهدة السلطان السلجوقي من بسط نفوذه في الشرق .

عندما أخذ الحكم البيزنطي على الأناضول في الضعف ظهر العديد

من القادة الأرمن في أعالي الفرات وفي قيليقية . وأحد هؤلاء الأرمن يُدعى فيلاريتوس ، تلقى المساعدة من جانب جبريل حاكم ملطية فقطع طرق المواصلات بين الأناضول وشرقي وشمال البلدان المسلمة . وفي سنة ٤٧٥هـ/ ١٠٨٢م زحف سليمان باتجاه الشرق . وبفتح أذنه ، وطرسرس ، والمصِّيصة ، وعين زربة في سنة ٤٧٦هـ/١٠٨٣م وطَّد سيطرته على قيليقية . وحتى يُنقذ فيلاريتوس مملكته ذهب إلى السلطان ملكشاه وأقرّ بالإسلام ، أما سكان انطاكية المسيحيون ولأجل أن يتخلصوا من طغيانه ، فقد استدعوا سليمان سرًا في ١٥ شعبان ٤٧٧هـ/ ١٧ ديسمير ١٠٨٤م وسلموا إليه المدينة . وبسبب هذه الفتح تنازع مع الأمير العقيلي شرف الدولة مسلم وهزم جيشه وقتله سنة ٤٧٨هـ/١٠٨٥م . ونتيجة لسياسته التوسعية وحصار حلب ، فقد اشتبك سليمان في قتال ضد شقيق ملك شاه تتش ، حاكم دمشق ، وخسر سليمان حياته وجيشه في ٢٠ صفر ٤٧٩هـ/ ٦ يونيه ١٠٨٦م .

في غضون عشر سنوات لم يكتسب سليمان منطقة فسيحة فحسب. فالأرمن ، والمسيحيون السريان ، والمنشقون البوليسيون – الذين كرهوا سياسة الضغط والاحتواء البيزنطية ازاءهم – وجدوا الحرية الدينية التي كانوا ينشدونها تحت إدارة سليمان . وبفضل الحرية الدينية التركية المميزة ، وعدالة الإدارة ، والتطبيق الكامل لها من جانب خلفاء سليمان على دولة السلاجقة ، فقد ظفروا بولاء السكان المحليين وازدادوا قوة بذلك . وقد اعترف الخليفة العباسي بسلطنة سليمان فأرسل له التقليد وخِلَع التشريف وعلم الخلافة ، وصار بالتالي سليمان شاه ، وكانت حدود هذه الدولة الغازية بعيدة عن التأثير الشيعي . ولكن على الرغم من ذلك فإن سليمان اتصل بالخلافة الفاطمية في مصر منذ وقت مبكر سنة ٤٦٧هـ/١٠٧٤م نكاية في أبناء عمه في إيران ، وبعد ذلك حينما فتح طرسوس لم يجد غضاضة في الطلب من حاكم طرابلس الشيعي أن يزوده بقضاة وخطباء . وهذا السياق يختلف عن الرواية التي تزعم

أن سليمـان أُرسِلَ إلى الأناضـول من قبَل ملك شاه الذي عينه عليـها ، فـتلك الرواية غير صحيحة ، بل هي مجرد خرافة ، بل وتشبه هذه أيضًا تلك الرواية في المصادر البيزنطية التي تصوره بأنه كان تابعًا (فصلاً) للامبراطورية ، بينما في الحقيقة أنه طوّق أباطرتها بنعمته .

الأناضول بعد سليمان

بعد وفاة سليمان ، أُرسِلَ ابناؤه الذين كانوا معه إلى ملك شاه لفترة من الوقت ٤٧٩-٤٨٥هـ / ١٠٨٦-١٠٩٢م ، وأضحى عرش أزنيق شاغرًا ، وتحطمت الوحدة السياسية للأناضول . وفي سنة ٤٧٧هـ/١٠٨٤م قام مؤسس الدولة الدانشمندية في وسط الأناضول ، كمشتكين أحمد غازي ، بوصفه تابعًا لسليمان مكملاً للعمليات الأخيرة . فهاجم حاكم ملطية جبريل . وفي سنة ٤٧٨هـ/١٠٨٥م نهض فاتح جانجري وقصطمونية، خارتكين ، وانتزع سينوب . وفي السنة نفسها غزا أمير بولداج المناطق العلياَ لنهر جيحان . أما الإمارة الثانية فقد أسسها منكوجك غازي بين ارزنجان وديفريجي ، وقاتل اليونانيين على سواحل البحر الأسود بالتعاون مع الدانشمنديين . أما الدولة الأخرى فقد أنشأها في أزمير الأمير التركي الشجاع البارع المدعو جكا ، والذي كان قد أُسرَ من قبل البيزنطيين في إحدى المعارك بالأناضول وتثقف في البلاط الامبراطوري ، وفي سنة ٤٧٤هـ/١٠٨١م ولىّ هاربًا إلى ازمير وجمع كل الأتراك بتلك المناطق تحت قيادته ، كما ورث اسطولاً بديعًا عن طريق تجنيد اليونانيين بالسواحل ، وأصبح قادرًا على فرض نفوذه على الجزر الأيجية ، وقد استمرت هذه الإمارة حتى انتهت زمن الحملة الصليبية الأولى . واحدى الامارات الأخرى المبكرة التي ظهرت في الأناضول تأسست في ارضروم من قبَل الأمير صالتوق ، والذي اعترف بالسيادة لسلاجقة فارس . أما الإمارات الارتقية التي كانت تشمل ديار بكر وماردين وخربوط ، والإمارة السقمانية على

ضفاف بحيرة فان الهادئة فلم تظهر إلا متأخرة وذلك بعد عشر سنوات(١). إذ أن هذه المناطق حُكمت من قبل السلاجقة في تلك الفترة ، وبعض تلك المناطق التابعة لفيلاريتوس وجبريل انحسرت من جانب سليمان وكمشتكين الدانشمندي . ويوجد جزء من الأناضول لم يكن بأيدي الأتراك بالمنطقة الشرقية للبحر الأسود إذ ان طرابيزون التي أُسْتُرِدّت من الترك في سنة ١٠٧٥م تأسست بها دوقية يونانية ، وظل خلفاء الدوق مستقلين عن الأباطرة البيزنطيين ، وشكلوا أحيانًا تحالفات مع الترك .

أما أبو القاسم الذي تركه سليمان نائبًا عنه في أزينق حينما ذهب على رأس حملته إلى قيليقية وانطاكية فلم يمتلك فحسب الدولة السلجوقية بعد وفاة سليمان بل اندفع أيضًا إلى المضائق . وقد أرسل ملك شاه أولاً الأمير برسق لجعل سلاجقة الأناضول تحت سيطرته سيما وأن شقيق سليمان كان قد قُتِلَ سنة ٤٧١هـ/١٠٧٨م ، ثم أرسل جيشًا آخر إلى ازنيق بقيادة الأمير بوزان . ولمواجهة خطر جيش ملك شاه فقد شكل أبو القاسم واليكسوس حلفًا ، غير أن وفاة ملك شاه في سنة ٤٨٥هـ/١٠٩٢م حينما كان بوزان يحاصر أزنيق وضعت حدًا لآخر ضغط من جانب السلاجقة العظام على الأناضول . وعندما اندلعت المنازعات على العرش نتيجة لوفاة ملك شاه ، أُطْلِقَ سراح قلج أرسلان ابن سليمان ، فذهب إلى الأناضول سنة ٤٨٥هـ/١٠٩٢م فرحب به الترك بفرح شديد ونصّبوه على العرش . وقد أعاد الشاب قلج أرسلان تنظيم دولته ، فجدد بناء عاصمته ، وعين الولاة والقادة ، كما أقصى البيزنطيين الذين كانوا يحاولون أن يستقروا على شواطئ مرمرة . وبالموافقة على التعاون مع الامبراطور البيزنطي عزل منافسه جكا بك الذي كان مندفعًا تجاه الدردنيل وقوته في ازدياد . وفي أعقاب معاهدته مع بيزنطة شعر قلج ارسلان بالحرية

---

(١) لا يزال تشكيل أولى الامارات بالأناضول محل خلاف .

في التحرك شرقًا للتوسع . وحاصر ملطية في سنة ٤٨٩هـ/١٠٩٦م ، ولكن وعلى الرغم من أن سكان هذه المدينة وبخاصة السريان قدموا له المدينة مستسلمة لكي ينقذوا أنفسهم من جبريل الذي تحول إلى الأرثوذكسية وأصبح يقاومهم ، فإن قلج أرسلان اضطر إلى الرجوع للدفاع عن عاصمته ضد الصليبيين .

أما الفريق الأول من الصليبيين الذين قدموا مع بطرس الناسك فقد كان من السهل تحطيمهم . ولكنه كان من الصعب مقاومة الجيش الكبير المنظم التالي . فحاصر الصليبيون أزنيق ، وعلى الرغم من أن قلج ارسلان عاد على عجل ، فإنه بات عاجزًا عن دخول المدينة ، وفي ١٩ يونيه ١٠٩٧م أجرى المدافعون عن ازنيق اتفاقية تسليم لجيش الأمبراطور ، أما هؤلاء المدافعون الترك وثروات السلطان التركي وزوجته – إبنة جكا – فقد أُرسِلَ الجميع إلى القسطنطينية . فاتخذ قلج ارسلان من كمشتكين الدانشمندي وأمير كبادوقيا حسن بك حليفين له ، والتقوا بالصليبيين في اسكى شهر في ١٧رجب ٤٩٠هـ/ ١يوليه ١٠٩٧م وحدثت معركة ضخمة في هذا المكان ، وتقاتل الجيشان ببسالة وتقاسموا إراقة الدماء الكثيرة . وقد وصف أحد المؤرخين الأخباريين من بين الصليبيين كيف قاتل الترك بهذه الكلمات : ((لو أن الترك كانوا مسيحيين لما استطاع أي شخص أن يساويهم في المعركة أو يجاري بسالتهم)) وكان الصليبيون يتمتعون بتفوق ساحق على الترك . ولهذا السبب تقهقر قلج أرسلان ، وليس لأجل النقص في جيشه بما تكبده من خسائر . وعلى الرغم من ذلك فقد قاتل الصليبيين مرة أخرى مع كمشتكين وحسن بك على أطراف هرقلة القريبة من قونية ، فتكبد خسائر ثقيلة جدًا وانسحب ، وعند الجبل المسمى بالأمير حسن (حسن داغ) قُتلت أعداد كبيرة من جنوده . وأخيرًا أصبحت أضرحتهم في تلك المنطقة مزارات للذكرى .

وعلى الرغم مما تكبده أتراك الأناضول من خسـائر كبيرة في القوة البشرية وعلى الأرض نتيجة للحملة الصليبية الأولى ، فإنهم سرعان ما استعادوا قواهم ، وفي رمضان ٤٩٣هـ / يوليه ١١٠٠م واجه كمشتكين أحمد غازي الصليبيين المندفعين من سوريا وهزمهم عند ملطية ، وأخذ بوهمند وغيره من الأمراء المقدمين أسرى . وفي سنة ١١٠١م قام أيضاً مع قلج ارسلان وأبادوا بالكامل جيشين صليبيين ، أحدهما قرب آماسيا ، والآخر عند هرقلة حينما كان أولئك الصليبيون يقاتلون لتحرير المأسورين الصليبيين في نكسار . وقد أفادت هذه الانتصارات في رفع معنويات قلج أرسلان وأتراك الأناضول الذين تكبدوا الكثير من قبل على أيدي الصليبيين . وبعد سقوط ازنيق اتخذ قلج ارسلان من قونية عاصمة له ، وبالاتفاقية التي عقدها مع الامبراطور (البيزنطي) ضد الصليبيين أصبح قادراً على التحرك لفتح الشرق – مثلما فعل والده من قبل – فهزم أولاً الدانشمنديين وأدخلهم في طاعته . وفي سنة ٤٩٦هـ/١١٠٣م انتزع ملطية من كمشتكين ، والتي كان قد فتحها سنة ٤٩٤هـ/١١٠١م ، وأنشأ بها إدارته الخاصة . ثم وجه انتباهه نحو إمارات شرقي الأناضول وجعلها تعترف به سيداً عليها . وللمنافسة التقليدية مع السلاجقة العظام فقد ضم الموصل ، ولكنه تورط في معركة شرسة على نهر الخابور ضد جيش قوي أرسله سلطان السلاجقة محمود – ومثل والده – فقد قلج أرسلان حياته نتيجة لتلك المنافسة في ٩ شوال ٥٠٠هـ/ ٣ يوليه ١١٠٧م. وعلى الرغم من أن دولة السلاجقة تدهورت على نحو خطير نتيجة لوفاة والده وهجوم الصليبيين ، فإنها لم تلبث أن انتعشت وصارت أقوى من أي وقت مضى تحت قيادته ، غير أن أضخم أزمة هي التي تمخضت عن وفاته .

فترة الأزمة وتقهقر الترك إلى وسط الأناضول

ومثل والده ، ترك قلج أرسلان عرش قونية بدون مالك ، عندما توفي ، فابنه الأكبر شاهنشاه الذي كان حينذاك حاكماً للموصل أُخذ إلى أصفهان أسيراً ، ولم يعد بمقدوره الرجوع إلى قونية ليصير سلطاناً حتى سنة ٥٠٤هـ/ ١١١٠م . وقد أفاد البيزنطيون من فترة الأزمة هذه ، فأخذوا المبادرة بالهجوم على جميع المناطق الساحلية للأناضول ، وفي كل مكان تهيأ الترك للرحيل إلى وسط هضبة الأناضول ، لكن هذا التراجع كلفهم خسائر كبيرة ، إذ إن جمهوراً ضخماً من الأتراك الذين كانوا يخيمون بجوار أُلوباد « لوباديون » وخلال طريقهم إلى مركز الأناضول تعرضوا لهجوم من قبل البيزنطيين ، وكان أكثرهم يشمل النساء والأطفال فذبحوا عن آخرهم . وعلى الرغم من بعض الهجمات المضادة الناجحة من طرف الأمير حسن صاحب كبادوقيا وشاهنشاه الذي حكم قونية فلم يمكن وقف التراجع العام . وقام الكسيوس وخليفته يوحنا الثاني أيضاً بطرد الترك من غربي الأناضول وشمال وجنوب المناطق الساحلية أو فتكوا بهم .

وقام الحاكم الدانشمندي أحمد غازي(٤٩٩-٥٢٩هـ/١١٠٥-١١٣٥م) ابن كمشتكين بمساعدة زوج ابنته مسعود على انتزاع عرش قونية من أخيه شاهنشاه سنة ٥١٠هـ/١١١٦م . وهكذا انكمشت دولة السلاجقة إلى مملكة صغيرة لا تتعدى ضواحي قونية تحت الحماية الدانشمندية . وتحت هذه الظروف استمر الامبراطور يوحنا الثاني (١١١٨-١١٤٣م) في هجماته فهزم الأتراك ، واحتل بلدان دينيزي (لوديكيا) وألوبورلو (سوزوبوليس) . ولكن في سنة ٥١٤هـ/ ١١٢٠م قام الأمير غازي ، مستفيداً من العمليات البيزنطية في البلقان، وبمساعدة الأراتقة، وهزم دوق طرابيزون وحليفه ، حاكم منكوجك ، عند شيران . ومع أن السلطنة كانت في أيدي السلاجقة إلا أن الحكام

الحقيقيين -حينذاك- هم الدانشمنديون . وعندما قام أخو السلطان مسعود الآخر عرب - الذي استقر في أنقرة وقصطمونية - وزحف نحو قونية للاستيلاء على عرش السلاجقة بها سنة ٥٢٠هـ/١١٢٦م كوّنَ مسعود تحالفًا مع الأمبراطور البيزنطي ، وهزم أخاه ، مُجبرًا إياه على أن يتخذ له ملجأً في قيليقية . وهذا مكّن البيزنطيين من أن يحتلوا قصطمونية . غير أن حملة الأمبراطور على قيليقية ومحاولات أخيه الاستيلاء على العرش ، ساعدت الأمير غازي ليدفع البيزنطيين بعيداً وأن ينتزع ساحل البحر الأسود . ومن ناحية أخرى بدأ السلطان مسعود يندفع غربي الأناضول . ثم دخل الأمير غازي قيليقية وهزم الصليبيين الزاحفين . وفي فترة قصيرة صار الأمير غازي حاكمًا لكل مقاطعات الأناضول الواقعة فيما بين سكاريا والفرات . وقد أنعم عليه الخليفة والسلطان سنجر بلقب ملك ، وأرسلا له الطبل والعلم كرموز للسيادة ، وأصبح في ذلك الوقت أعظم حاكم قوي بالأناضول .

وحين وفاة الملك غازي سنة ٥٢٩هـ/١١٣٤م صار السلطان مسعود -الذي كان في ذلك الوقت تحت حمايته- حليفًا ومساويًا لابنه وولي عهده الملك محمد . وبينما كان الامبراطور يوحنا كومنين يعاقب الأرمن في قيليقية ويتنازع مع الصليبيين ، لم يجد السلاجقة والدانشمنديون صعوبة في مد حدودهم تجاه البيزنطيين . وتسبب هذا في زحف الامبراطور في سنة ٥٣٤هـ/١١٤٠م على رأس جيش كبير نحو نكسار عاصمة الدانشمنديين لكي يقضي على أتراك الأناضول ، كما قرر خلع تيودور غابراس دوق طرابيزون . فوصل إلى نكسار بعد أن تكبد خسائر فادحة في جنوبي الأناضول وحاصر المدينة ، وخلال الحصار نشبت معارك طويلة وشرسة بين الأتراك واليونانيين . وقد تسبب طول الحصار في اضطرابات داخل الجيش البيزنطي ، فلجأ أحد أمراء الامبراطور يوحنا إلى معسكر السلطان . أما عن أثر انشقاق هذا الأمير -الذي صار مسلمًا واستقر في قونية وتزوج بعد ذلك من ابنة السلطان - فقد

أجبر الامبراطور على العودة في هدوء إلى القسطنطينية عن طريق البحر الأسود وذلك سنة ١١٤١م . وأفضى فشل هذه الحملة الكبيرة - التي بدأت على النحو المشار إليه طموحةً - إلى فتوحات تركية جديدة ، فاندفع السلطان مسعود على طول منطقة انطالية .

وحينما بدأ الدانشمنديون يتنازعون مع بعضهم البعض على الملكية عقب وفاة الملك محمد سنة ٥٣٦هـ/١١٤٢م ، هَزم السلطان مسعود ياغي بازان الدانشمندي ملك سيواس ، وحاصر ملطية ، وضم منطقة جيحان إلى بلاده . ونجم عن هذا التطور المفاجئ انتقال الهيمنة - مرة أخرى - على الأناضول من الدانشمنديين إلى السلاجقة . وبينما كان السلطان مسعود يوسع حدوده نحو الشرق مستفيداً من المنازعات بين أتابكة الموصل والأراتقة ، كان التركمان يتقدمون في غربي الأناضول متتبعين أودية الماندر والجيديز . وتهيأ الأمبراطور مانويل الأول كومنين مع جيش كبير ليدفع الترك عن الأناضول . وبعد تصفية حساباته مع الترك غربي الأناضول ، زحف نحو قونية وهزم قوات السلاجقة في اكشيهير وأحرق المدينة واندفع في اتجاه قونية . وعندما علم السلطان مسعود بدنو الخطر عاد بسرعة من الشرق وأعد جيشه في أقسراي وقابل الامبراطور أمام قونية . وكان البيزنطيون قد دمروا تماماً منطقة قونية وقتلوا عدداً كبيراً من السكان ، حتى إنهم نبشوا بعض القبور . ولكنهم أُخذوا على غرة حين هاجمهم السلاجقة ، فتراجعوا بعد أن غدوا مرهقين على نحو خطير ، وهكذا انتهت حملة سنة ١١٤٧م أيضاً بالفشل. بيد أنه على الرغم من هذه المعركة فإن بداية الحملة الصليبية الجديدة توّاً أجبرت العاهلين على التوصل إلى اتفاق لمواجهة الخطر المشترك .

عندما استرد الأتابك عماد الدين زنكي الرها سنة ٥٣٩هـ/١١٤٤م جرى تنظيم الحملة الصليبية الثانية في أوربا تحت قيادة كونراد الثالث وملك

فرنسا لويس السابع . وكانت هذه المرة الأولى في تاريخ الحروب الصليبية التي يقود فيها الملوك الحملة بأنفسهم . أما الجيش الألماني فتوجه مع الأدلاء الخونة للامبراطور البيزنطي مانويل عبر طرق خاطئة فتعرض لهجمات مفاجئة من جانب الترك وحلت به هزيمة ساحقة قرب اسكي شهر في ٢٨ جمادى الأولى ٥٤٢هـ/٢٥ أكتوبر ١١٤٧م وبعض أولئك الذين حاولوا الرجوع فتكت بهم الهجمات اليونانية . ونتيجة لهذه الكارثة الضخمة أدرك الملك الفرنسي استحالة المرور عبر البلاد السلجوقية فحاول أن يتبع طريق افسوس ، دينزلي ، أنطالية. ولكنه كان قدراً فقط على الوصول إلى أنطالية بعد تكبده خسائر ثقيلة بسبب الهجمات التركية . وهناك استطاع فقط أولئك الذين يملكون النقود أن يبحروا إلى سوريا ، أما الذين تركوهم خلفهم فقد عانوا من الهجمات التركية ، والنهب اليوناني ، ومن الجوع والمرض . وبلغت حالتهم درجة سيئة حتى إن الأتراك أشفقوا عليهم وأعطوهم الطعام والنقود ، واعتنوا بمرضاهم . وقد تحدث مؤرخ مسيحي عن هذه الحادثة فقال :

((وعلى هذا النحو ذهبوا في أمان تاركين اخوانهم في الدين ، دون أن يجنبوهم المصير القاسي حيث تركوهم بين الكفار الذين أشفقوا عليهم ، وحالاً سمعنا أن أكثر من ثلاثة آلاف انضموا بأنفسهم إلى الترك حينما عُزلوا . آهـ ، شفقة أكثر قسوة من جميع الغدر ، فقد أعطوهم القوت ولكنهم سلبوهم دينهم على الرغم من أنهم كانوا راضين بتقديم تلك الخدمات دون أن يجبروا أحداً منهم على أن يرتد عن دينه))(١).

---

(١) Odo of Devil , De Ludovico vii. itinere, quoted in T.W. Arnol, Preaching of Islam (London , 1935) , 89 .

النزاع على السُّـــلطة وانتصار قلج أرسلان الثاني

بعد اندحار الجيش البيزنطي أمام قونية ، وجيوش الحملة الصليبية الثانية التي هددت العالم الإسلامي ، صار السلطان مسعود ضمن حدوده أحد أقوى حكام وقته . فمن جراء هذه الانتصارات اخذت فترة الأزمة لأتراك الأناضول تُشارف على النهاية . وبدأ عصر الرسوخ والتقدم ، فأرسل الخليفة العباسي للسلطان السلجوقي شعارات السيادة مثل خِلَع التشريف والعلم وهدايا أخرى مع تقليده له . وفي أعقاب هذه الانتصارات هزم السلطان مسعود الصليبيين في سوريا بحملاته في سنتي ٥٤٤هـ/١١٤٩م و ٥٤٥هـ / ١١٥٠م مفتتحاً مرعش ، وكيسوم ، وعينتاب ، ورعبان ، ودلوك ، وطرد الصليبيين من هذه المناطق . وفي غضون ذلك وسَّع ملك سيواس ياغي بازان حدوده باتجاه البحر الأسود فاستولى على بافرا (بابرا) . وبعد إدخال دانشمنديي سيواس وملطية تحت سلطانه ، دخل السلطان مسعود قيليقية بمساعدتهم ، وفي سنة ٥٤٩هـ/١١٥٣م استولى على عدد من المدن الأرمنية . وانتوى فتح كل قيليقية ، غير أن تفشي الوباء منعه من تحقيق ذلك ، الأمر الذي جعله يعود فوراً . وتوفي سنة ٥٥١هـ / ١١٥٥م . وقام السلطان مسعود خلال عهده الطويل بصيانة دولة السلاجقة من الزوال عن طريق سياساته البعيدة النظر ، وبجهده وصبره . كما حولها من دولة صغيرة قاصرة على ضواحي قونية إلى قوة تهيمن على الأناضول ، وذلك بفضل كفايته وعدالته ، حتى إنه استمال من الجانب الآخر بعض النصارى من البيزنطيين . كما أن سياسة البناء وإقامة الخدمات الاجتماعية في الدولة السلجوقية بدأت أيضاً في عهده .

أما ابنه قلج أرسلان الثاني (٥٥١-٥٨٨هـ/ ١١٥٥-١١٩٢م) الذي خلفه على العرش ، فقد استمر على سياسة والده ، وعمل على تحقيق الوحدة السياسية وتحسين الأوضاع الاقتصادية والثقافية للأناضول . ويحتل قلج

أرسلان الثاني مكانة ممتازة بين السلاطين السلاجقة ، وكان قد هُدِّد بتحالفات معادية في سنواته المبكرة . ففي البداية ناضل ضد أخيه شاهنشاه، ملك قصطمونية وأنقره ، والملك الدانشمندي ياغي بازان . وللإفادة من هذا الخلاف الداخلي ، شكل الامبراطور مانويل والأتابك نور الدين زنكي تحالفًا ضد قلج أرسلان في سنة ١١٥٩م . ولم تفت الأمير الأرمني ثوروس الفرصة للهجوم على السلاجقة أيضًا . ولمواجهة الكثير من الأعداء والتحافات ذهب قلج أرسلان إلى القسطنطينية ، مركز هذه المناورات السياسية . أما الأمبراطور -وطبقًا للسياسة البيزنطية المشجعة للتدمير المتبادل للحكام الترك - فقد وقَّع معاهدة مع السلطان وزوده بمساعدة مالية . وبعد عودته من القسطنطينية زحف قلج أرسلان فورًا لقتال ياغي بازان فهزمه هزيمة ساحقة في سنة ٥٥٩هـ/١١٦٣م ثم خلع أخاه شاهنشاه والأمراء الدانشمنديين الآخرين . واضطر نور الدين زنكي أن يعيد للسلطان كل الأماكن التي انتزعها منه . واعترفت إمارة منكوجك بسيادة السلطان عليها . وهكذا امتدت الدولة السلجوقية من سكاريا إلى الفرات مرة أخرى .

أما الأمبراطور مانويل الذي كان مشغولاً في البلقان ، فقد انزعج عندما أدرك أن قوة قلج أرسلان زادت إلى حد كبير بعزله جميع أعدائه . وبذريعة كبح فتوحات وهجمات التركمان في غربي الأناضول ، نظم الأمبراطور جيشه ليطرد الترك من الأناضول ، وزحف صوب قونية ، كما رفض عرض السلطان بتجديد المعاهدة، التي استمرت زهاء اثنتي عشرة سنة . ولذلك قاد قلج أرسلان جيشه بمحاذاة اكشيهير وقابل القوات البيزنطية عند ميريوكيفالون في شعب ضيق شديد الانحدار شمالي بحيرة اجريدير في ربيع الأول سنة ٥٧٢هـ/ سبتمبر ١١٧٦م وأنزل بها كارثة مروعة . وعلى الرغم من أنه كان بالامكان أسْر الأمبراطور ، وإبادة الجيش البيزنطي ، مثلما حدث في مانزكرت، ولسبب غير معروف، فإن السلطان قَبِلَ التماس الأمبراطور السلام.

فقد كان قانعًا بحدوده المميزة ، حتى إنه زود الأمبراطور بثلاثة أمراء سلاجقة كمرافقين لحمايته ازاء هجمات التركمان أثناء عودته . وبهذا النصر الثاني الكبير بعد مانزكرت وضع قلج أرسلان النهاية لكل الأوهام البيزنطية القديمة -التي دامت قرن من الزمان- باسترداد الأناضول من الأتراك ، باعتبارها جزءًا من الأمبراطورية البيزنطية . فبعد أن كانت الأمبراطورية في حالة هجوم واندفاع منذ الحملة الصليبية الأولى ، عادت الآن لتواصل الانحطاط والتدهور ومثل الفترة الأولى من الفتوحات التركية فإن أهمية هذه المعركة شبيهة بمانزكرت التي قُدِّرت في زمنها وأعلنها شعراء بغداد كأفضل الأبناء . ومما لا ريب فيه أن الأناضول أصبحت أرضًا للترك . ومنذ أواخر القرن الثاني عشر الميلادي كانت تُسمى تركيا في المصادر الغربية .

وبعد هذا الانتصار أرسل قلج أرسلان قواته الغازية قبالة البحر غربي الأناضول ، ففتحت سنة ٥٧٨هـ/١١٨٢م مناطق أُلوبورلو ، وكوتاهية ، واسكي شهر، وحاصرت دينزلي ، وانطالية . وبفضل هذه الانتصارات توطدت الوحدة السياسية والقانون والنظام في الأناضول ، وبدأت حقبة التقدم الاقتصادي والثقافي . وبعد حياة حافلة بالكفاح شعر قلج أرسلان بالتعب والكِبَر فقسم مملكته بين أبنائه الأحد عشر متبعًا تقاليد السياسة التركية ، وتقاعد سنة ٥٨٢هـ/١١٨٦م في قونية برغم أنه السلطان المُعْتَرفْ به . أما هؤلاء الملوك الذين حكموا مستقلين في مناطقهم ، فقد استمروا في فتوحاتهم ضد الأمبراطورية البيزنطية الضعيفة ، فزحف سليمان ملك توقات إلى ساحل البحر الأسود وفتح سامسون ، أما مسعود ملك أنقرة فقد فتح مناطق بولو ، وفتح كيخسرو ملك أولوبورلو وادي المياندر .

وحينما دخل فردريك الأول بربروسا - امبراطور ألمانيا - بلاد السلاجقة على رأس الحملة الصليبية الثالثة سنة ١١٩٠م كان العجوز

قلـج أرسـلان حينذاك قد فقد سلطته ، بل كان شاهداً للمنافسة بين أبنائه .
وكان يوجد حلفان متعاديان ، بين قلج أرسلان والأمبراطور الألماني ، وبين الأمبراطور البيزنطي وصلاح الدين . وعندما نُظِّمت الحملة الصليبية الثالثة نتيجة لاستيلاء صلاح الدين على بيت المقدس وهزيمة المملكة اللاتينية ، حصل الأمبراطور فردريك من نصيره قلج أرسلان على إذن بالمرور عبر الأناضول .
غير أن الجيش الألماني الكبير تورط في البداية في حرب عصابات مع التركمان عند الحدود السلجوقية ، ومع جيوش ملك شاه ومسعود ابني السلطان . وعلى الرغم من أن اهتمام فردريك كان منصباً على الوصول إلى سوريا عن طريق الذهاب مباشرة إلى قيليقية ، إلا أنه أُجْبِر لأسباب أمنية وتموينية إلى الاندفاع نحو قونية . ولم يستطع ملوك السلاجقة وقف الجيش الصليبي ، وعلى أطراف قونية احتل الأسواق ونهبها ودمرها . أما السلطان الذي كان يعيش في قصره فقد أرسل سفيراً إلى الأمبراطور طالباً الصلح مع الاعتذار بأن المسؤولية والسلطة كانتا في يدي ابنه ملك شاه ، فأجابه الأمبراطور بأن هدفه لم يكن الأناضول ، وإنما صلاح الدين وبيت المقدس ، وهكذا وُقِّعت معاهدة بينهما وغادر الأمبراطور الأناضول .

العصر الذهبي لسلاجقة الأناضول

أما المنازعات بين أبناء قلج أرسلان التي بدأت سنة ٥٨٤هـ/١١٨٨م فقد استمرت بعد وفاة والدهم ٥٨٨هـ/١١٩٢م وانتهت باحتلال قونية من قِبَلَ سليمان في سنة ٥٩٣هـ/١١٩٦م . إذ إنه حَذِرٌ ونشيط أكثر من اخوته ، فقد مكث خارج نزاعاتهم وفي الوقت المناسب أعاد الوحدة السلجوقية ، إما باخضاعهم لسيطرته أو بخلعهم . وفرض الجزية على الأمبراطور الكسيوس الثالث الذي قام رجاله بنهب التجار الأتراك على ساحل البحر الأسود أثناء الخلافات الداخلية ، كما هزم الملك الأرمني ليو الثاني الذي اعتدى على الحدود

التركية ، وطرده إلى خارج المناطق التي استولى عليها . وعندما أدرك أن الصلتوقيين ، الذين حكموا في ارضروم ، كانوا في ضعف وأن الطريق التركي الفارسي قد هُدِّدَ من جانب الكرج الذين اندفعوا قريبًا من أرضروم ، زحف السلطان السلجوقي إلى هناك في سنة ١٢٠١م ، وتلقى المساعدة من المنكوجكين وبعض الأراتقة ، وبعد إخضاع دولة صلتوق ، زحف على عجل نحو جورجيا ، ولكنه وجيشه بُوغتوا من قبل جيش الكرج والقفجاق قرب صاري قامِش فتراجع تاركًا عددًا كبيرًا من جنوده أسرى . وعلى الرغم من أنه نظَّم حملة أخرى لفتح جورجيا ، فإنه بعد استرداد أنقرة من أخيه مسعود ، توفي في الطريق سنة ١٢٠٤م دون انجاز هذا المشروع .

وبعد وفاة سليمان قام أخوه كيخسرو الأول - الذي حكم سابقًا لمرة واحدة قبل تبوّؤ سليمان - ومُلك العرش . وقد خطط عملياته العسكرية وفقًا للسياسة الاقتصادية والتجارية . وبفضل الأمن والسلام الذي توطد خلال عهد قلج أرسلان ، فإن فترة ازدهار تجارة العبور ، قد تركزت في تركيا . بيد أن فتح اللاتين للقسطنطينية سنة ١٢٠٤م هدد سلامة الطرق التي تربط بين موانئ البحر الأسود والبحر المتوسط . أما الكومنينيون ، الذين تاقوا أن يحتلوا ساحل البحر الأسود، فقد سدوا المنافذ إلى مينائي سامسون وسينوب ، فخنقوا سيواس مع أعداد كبيرة من التجار القادمين من الأقطار الإسلامية والمسيحية ، وسببوا ضررًا كثيرًا . وتحت هذه الظروف شكل السلطان السلجوقي حلفًا مع الأمبراطور تيودور لاسكاريس صاحب نيقية وفتح منفذًا إلى البحر الأسود بهزيمة الكومنينيين في حملة سنة ١٢٠٦م . وفي سنة ٦٠٣هـ/١٢٠٧م فتح انطالية لنفس الهدف ، فزود الأتراك بميناء لتجارة البحر المتوسط ، واتخذ الإجراءات الضرورية لاستقرار التجار الترك هناك . وعقد أيضًا معاهدة تجارية مع البنادقة . وفي سنة ٦٠٦هـ/١٢٠٩م عاقب الأرمن. وعندما فتح دينزلي وأعالي مناطق نهر الماندر أصبحت الحرب مع امبراطور

نيقية حتمية . وبرغم أنه هزم الجيش البيزنطي قرب الآشـهير (فيلادلفيا) إلا أنه قُتل من قِبَل أحد جنود العدو حينما كان الجيش التركي مشغولاً بحيازة الغنيـمة .

أمـا كيكاوس الأول ٦٠٧-٦١٦هـ/١٢١١-١٢٢٠م فـقـد اسـتـمـر في سياسة والده . وفتح سينوب في سنة ٦١١هـ/١٢١٤م ودعى تجاراً كثيرين من المدن التركية الأخرى ليستقروا هناك . وجعلها ميناءً لتجارة العبور ، كما بنى حولها أسواراً ضخمة لحراستها ، ثم جعلها أخيراً قاعدة لاسطوله الذي بناه في البحر الأسود . وقد أطلق سراح الكسيوس - امبراطور طرابيزون الذي كان قد أخذه أسيراً - ولأول مرة يجعله يذعن له بالتبعية فيدفع الجزية . ثم طرد ملك قبرص من أنطالية ، والذي كان قد انتزع المدينة خلال نزاع السلطان مع أخيه كيقباذ على العرش . وفي سنة ٦١٣هـ/١٢١٦م شن الحرب على الملك الأرمني بسبب اعتدائه على الحدود التركية . فصار لزاماً عليه أن يدرك أنه لا يستطيع الوقوف ضد الجيوش التركية التي اندفعت على طول خط انطالية الساحلي . واضطر ملك الأرمن إلى توقيع معاهدة تبعية مع شروط تتضمن دفع جزية سنوية ثقيلة ، واعترف بسيادة السلطان بالإشارة إليه على العملة وفي الخطبـة . وسلَّم إليـه قـلاعـه الحـدودية . كـمـا ضم السلطان أجزاءً من شمـالي سوريا سنة ١٢١٨م مستفيداً من الخلافات الداخليـة بين الأيوبيين . وبالتـالي فـإن الحـاكم الأرتقي محـمد ، وحـاكم إربل مظفـر الدين كوكبوري قد اعترفا بسيادته العليا . وقد دُفن كيكاوس في المستشفى الكبير الذي بناه في سيواس وأعطى له ذلك أهمية جديرة بالاعتبار بالمقارنة مع نشاطاته الثقافية والبنائية علاوة على انتصاراته العسكرية والسياسية .

أما عهد علاء الدين كيقباذ (٦١٦-٦٣٤هـ/١٢٢٠-١٢٣٧م) فقد كان أكثر ازدهاراً وأعظم مجداً إبان فترة الحكم السلجوقي في الأناضول . ففي

الوقت الذي رُميت فيه آسيا في اضطراب عظيم بفتح المغول ، فقد شرع هذا السلطان القوي والبعيد النظر يقابل الخطر المغولي المحتمل بتحصين المدن مثل قونية وقيصرية وسيواس بالأسوار والحصون . وقد أعاد بناء وتوسيع قلعة كالونوروس على ساحل البحر المتوسط – والتي كان قد فتحها – وسماها العلائية وفقًا لاسمه ، وجعلها عاصمته الشتوية . كما دعّم القوة البحرية السلجوقية عن طريق بناء مسفنٍ بها . أما حملته إلى سغداق (كريميا) في سنة ٦٢٢هـ/١٢٢٥م باسطوله في البحر الأسود فهي تُعطي فكرة عن القوة البحرية السلجوقية . وبينما كان منهمكًا في هذه العملية عبر البحار ، أرسل أيضًا جيوشًا أخرى إلى أرمينية الصغرى من الشرق والشمال ومن ساحل انطالية . وقد مكّنت ردة الفعل الشعبية الأرمنية إزاء النبلاء ، بسبب ميلهم للتشبه باللاتين ، هيثوم سيد/لامبرون وصديق السلاجقة ان يصبح ملكًا ، وأُجْبِرَت المملكة الأرمنية على أن تغدو دولة تابعة للسلاجقة . أما التركمان الذين استقروا مؤخرًا في منطقة آجيل المفتوحة فقد شكلوا القاعدة لإمارة قرامان التي تأسست هناك في نهاية المطاف .

ومع أن جلال الدين منكبرتي خوارزم شاه كان في طريق نضاله ضد المغول فقد ظهر شرقي الحدود الأناضولية وأخضع أمراء تلك المنطقة تحت سلطته وانتقل مركز النشاط السياسي صوب الشرق . وخلال ذلك ، فقد استولى السلطان كيقباذ ، بهزيمة الأيوبيين والأراتقة ، على قلاع حصن منصور (عظيمان) وكاخته ، وجمشكزاك . وفي سنة ٦٢٥هـ/١٢٢٨م أخضع إمارة منكوجك . وفي ذلك الوقت اغتر الكومينيون في طرابيزون بمساعدة خوارزم شاه وتمردوا على السلاجقة ، وهاجموا مينائي سامسون وسينوب ، فأرسل كيقباذ قواته بالبحر الأسود من الساحل وفتحت المنطقة على طول يوني . وقسمٌ من هذه القوات وجيش أرزبخان اندفعت عبر ماتشقه ، وحاصرت مدينة طرابيزون . وعلى الرغم من أن المدينة تعرضت لهجوم عنيف،

فإن الأمطار الغزيرة والفيضانات أرغمت الجيش السلجوقي على الانسحاب . كما وقع أمير سلجوقي أسيرًا في قبضة اليونانيين . وعلى الرغم من ذلك فقد أُجْبِرَ اليونانيون على تجديد معاهدة التبعية بشرط دفع الجزية السنوية وتقديم المساعدة العسكرية .

كان كيقباذ أكثر حاكم معاصر عُنيَ وتهيأ للخطر المغولي . وقد أدرك أهمية التحالف مع جلال الدين خوارزم شاه ، فذكَّرهُ بانهما ينتميان لدين وشعب واحد ، ومشيرًا إلى أن مصير العالم الإسلامي إزاء تهديد الغزو يتوقف على سياستهما وسلوكهما ، ونصحه بوجوب التوصل إلى اتفاق مع الغزاة مهما كلف الأمر . بيد أن خوارزم شاه - بوصفه عسكريًا عظيمًا وسياسيًا قليل البراعة - شكَّل بنفسه خطرًا على السلاجقة أكثر من المغول . وأخيرًا وقعت معركة شرسة بين السلطانين في مكان يسمى ياسي جمن بين أرزنجان وسيواس في ٢٨ رمضان ٦٢٧هـ/ ١٠ اغسطس ١٢٣٠م وقد تكبد خوارزم شاه هزيمة مريرة بحيث لم يتمكن بعدها -أبدًا- من النهوض واستعادة قواه . ونزع السلطان كيقباذ أيضًا ابن عمه - ملك أرزنجان - الذي كان حليفًا لجلال الدين . ومن أرزنجان أرسل جيشه إلى جورجيا ، فانتزع عددًا من القلاع ، وأخضع الملكة الجورجية . ثم أقصى الأيوبيين من أخلاط وضواحي بحيرة فان . وملك جميع الحصون في الشرق وأعاد بناءها وترميمها وتقويتها بالكلس وجرى فتحها للعامة حسب أوامره . وحينما كان يتخذ هذه التدابير الوقائية تجاه المغول ، وقَّع على معاهدة سلام مع خان المغول الكبير أُكتاي قاآن عن طريق بعث رسول . وفاوض بما ناسب شهرته العالية ، فلم يضارعه أي حاكم من معاصريه . وأنقذ بلاده من غزو ونهب المغول . واعترف الأيوبيون في سوريا والأراتقة في ديار بكر بسيادته . وفي عهد كيقباذ وصلت الأناضول السلجوقية أعلى ذروة ، ليست سياسيًا فحسب بل اقتصاديًا كذلك. إذ بدأ السلطان برنامجًا ضخمًا للتشييد والبناء ، وكان قسم من ذلك البرنامج

لإعادة تنظيم وبناء المدن والقلاع . كما بنى بلدات قوباد آباد على شاطئ بحيرة بيشهر وكيقباذية بجانب قيصرية ، والمساجد ، والمدارس ، والخانات ، والجسور ، والمستشفيات ، وقد بُنيت في عهده ولا تزال تحتفظ بفخامتها وجمالها . كما كانت تلك الحقبة رائعة في ميدان العلوم والفنون . وبسبب هذه الخصائص لكيقباذ فقد صار حاكماً اسطورياً بين الأتراك الأناضوليين ، ولفترة طويلة كان يُذكر بوصفه كيقباذ العظيم .

الغزو المغولي واضمحلال سلطنة الروم

كان أكثر عامل هام في ضعف سلاجقة الأناضول هو وفاة كيقباذ المبكرة في سنة ٦٣٤هـ/١٢٣٧م ، وانعدام سلطان قوي بين خلفائه . إذ إن ابنه وخليفته كيخسرو الثاني كان شخصية تافهة نظراً لأنه الذي تسبب في الأزمة الأولى ، حيث كان خلفه رجل دولة فاسد يدعى سعد الدين كوبك –الذي ساعده لنيل العرش – ثم أكمل السيطرة عليه ، وقد استخدم تأثيره على السلطان ضد رجال الدولة المنافسين . وبالعمل أيضاً على جعل دولة السلاجقة جسم بلا رأس . ومع ذلك فإن نشاط وقوة الأناضول السلجوقية حجبت علامات الضعف . كان يوجد هناك انتصارات مطردة مهمة مثل تلك التي في ديار بكر وطرسوس ، في حين بقي الأمبراطور اليوناني في طرابيزون ، والملك الأرمني في قيليقية ، والأيوبيون في حلب أتباعاً لكيخسرو . ولكن ثورة بابا اسحاق تشير إلى أن الدولة السلجوقية بينما تحتفظ بمظهر القوة خارجياً فإنها كانت فاسدة من الداخل .

سبَّب الغزو المغولي هجرة للسكان التركمان شبيهة بتلك التي صاحبت الفتح السلجوقي الأول . أما شيخ التركمان بابا اسحاق ، أو بابا رسول ، مدعياً أنه رسول ، فقد أعلن عن قدوم عصر جديد ، واستقطب التركمان المعوزين اقتصادياً حوله ، ودعاهم إلى التمرد ضد إدارة كيخسرو الفاسدة .

ونظم التركمان المتمردون أنفسهم في مرعش ، وكاخته ، وعظيمان ، وهزموا القوات السلجوقية في البستان وملطيه . ومن هناك زحفوا إلى سيواس ، وبعد أن نهبوها تحولوا صوب أماسيه وقبل أن يتمكن التركمان من أن يلحقوا بشيخهم بابا اسحاق ، وعند تراجعه قتله السلاجقة . لكن التركمان الذين اعتقدوا أن بابا اسحاق مقدس ، وأنه لا يمكن أن يكون عرضة للموت اقتفوا أثر الجيش السلجوقي المهزوم صوب قونية ومعهم نساؤهم وأطفالهم ، وعددهم في ازدياد. وارتاع الجيش منهم ، أما السلطان الضعيف فلم يستطع أن يبقى في قونية ، وفرّ إلى قوباد آباد . ووصل جيش أرضروم مدداً عسكرياً ، وأُخْمِدَت ثورة التركمان بصعوبة في سهل ماليه قرب كيرشيهير في سنة ٦٣٨هـ/١٢٤٠م . أما بابا اسحاق الذي فعل أكثر مما فعله شامان التركي القديم ومن أي شيخ مسلم ، فقد امتلك قوة روحية كبيرة لدرجة أنها تغلغلت بين الجند السلاجقة وأسهمت في هزيمتهم . والحق أنه حتى المرتزقة الفرنج المسيحيين في الجيش السلجوقي ، جعلوا الصلبان على صدورهم قبيل قتال مريدية مما يشير إلى مدى قوته الروحية .

عندما كُشِفَ ضعف الدولة السلجوقية نتيجة لهذا التمرد ، بدأ الغزو المغولي . ففي سنة ٦٣٩هـ/١٢٤٢م ، وكمحاولة أولى ، استولى المغول على ارضروم ودمروها ، حيث واجهوا مقاومة كبيرة . وفي سنة ٦٤٠هـ/١٢٤٣م شرعوا في انتزاع الأناضول بجيش مكون من ٣٠٠٠٠تحت قيادة بايجونويان. وتقوى السلاجقة بقوات أتباعهم وواجهوا المغول بجيش كبير مكون من ٨٠٠٠٠ بقيادة السلطان نفسه. وحين بُعثرت طليعة الجيش السلجوقي من جانب المغول في كوسه داغ - الواقعة على مسافة خمسين ميلاً شرق سيواس (في ٦ محرم ٦٤١هـ/٢٦ يونيه ١٢٤٣م) -هرب السلاجقة- الذين لم يُحْكَمُوا منذ فترة برجل دولة قدير - في هلع ومع ارتباكهم أرعبوا السلطان بينهم . وفي هذا الوقت رحل السلطان بعيداً إلى انطالية . ووصل المغول إلى سيواس،

ومنها ذهبوا إلى قيصرية . وقد أُخذَت هذه المدينة قهراً على الرغم من المقاومة فنُهِبَت ودُمِّرَت . وعلى أثر عودة المغول تبعهم سفيران تركيان إلى قاعدتهم الشتوية في موغان ، حيث كانا قادرين على أن يقنعا بايجو بأن يعقد الصلح بشروط دفع إتاوة سنوية ، وأن يقرر هو أمر الأناضول ، ويمتلك عدداً من القلاع ويحصل على الخدمة العسكرية .

تبدأ بهزيمة كوسه داغ فترة الأفول والكارثة في تاريخ السلاجقة الأناضوليين ، وبعد وفاة كيخسرو الثاني ، هيأت المنافسة ومؤامرات رجال الدولة الطموحين – باسم ثلاثة من الأمراء الصغار – الأرض الخصبة لتدخلات المغول في شؤون الدولة ووظائفها العسكرية بالإضافة إلى مطالب الإتاوة . وقد عقد معين الدين سليمان البرواناه اتفاقية مع المغول مقصياً الأمراء ، ورجال الدولة الآخرين . ونال السيطرة على مقاليد الأمور باسم قلج أرسلان الرابع وكيخسرو الثالث . وبعد سنة ٦٥٩هـ/١٢٦١م نجح في بلوغ فترة ذات صلة بالسلام والاستقرار عن طريق معالجته البارعة للعلاقات مع المغول . وعلى الرغم من ذلك فقد اغتاظ الأتراك الأناضوليون تحت هيمنة المغول وبحثوا عن وسائل للإطاحة بها ، وكخطوة أولى أُستدعي بيبرس السلطان المملوكي في مصر – الذي خلف سلفه قطز بعد أن هزما المغول في عين جالوت سنة ٦٥٨هـ/١٢٦٠م – إلى الأناضول ، فجاء سنة ٦٧٥هـ/١٢٧٦م إلى قيصرية حيث نُصِّبَ على العرش طبقاً لمراسيم التقاليد السلجوقية . ولكن قلق بيبرس جعله عاجزاً عن البقاء في الأناضول خشية المغول ، وحال ذلك دون تحقيق تعاون مثمر بينه وبين رجال دولة السلاجقة ، وقفل السلطان المملوكي راجعاً بعد إقامة قصيرة .

وبعد هذه الحادثة دخل الخان ابغا – حاكم مغول فارس – إلى الأناضول وقتل عدداً كبيراً من الناس ، وأعدم معين الدين سليمان سنة

٦٧٦هـ/١٢٧٧م . وعلى الرغم من أن السلالة السلجوقية استمرت حتى سنة ٧٠٨هـ/١٣٠٨م فقد انتقلت الإدارة الحقيقية ، بعد وفاة سليمان ، إلى الحكام والقادة المغول . وجرى وضع حد للجيش والإدارة السلجوقية . وأصبح الجنود والموظفون العاطلون عن العمل مصدراً للفوضى ، وظُلِمَ السكان بالضرائب الثقيلة المفروضة عليهم من قِبَل المغول . وبدأت حقبة الفقر والتمرد في الأناضول . وبرغم هيمنة المغول وضياع القوة السياسية والعسكرية فلم تكن هناك – حتى وفاة معين الدين سليمان – أزمة بالغة الخطورة ولا تُغير في الحياة الإجتماعية والاقتصادية والثقافية . فقد استمرت التجارة الدولية تعمل ، ونادراً ما كان يحدث نقص في الانتاج الزراعي والصناعي أو استيراده وتصديره . فالآثار الباقية التي بنيت في هذه الحقبة ٦٤١-٦٧٦هـ/ ١٢٤٣-١٢٧٧م توضح أن التشييد والنشاطات الأخرى وتحسين حياة عامة الشعب استمرت مثلما كانت من قبل . غير أنه بعد سليمان ومع إدارة المغول بدأت فترة الأفول. ولهذا السبب فإن بعض المصادر تقول بأن «عصر البرواناه» هو عصر السلام والثبات . وبرغم ذلك فإن عصر كيقباذ كان يُذكر دائماً بوصفه الحقبة السعيدة . ووقت هزيمة كوسه داغ كان ينظر إليه على أنه بداية لكل الكوارث ويدعى « سنة بايجو » . وقد أسهمت ثورات الحكام المغول أيضاً في زيادة الظلم والفقر في الأناضول . وفي هذه الحقبة الحرجة كشفت مدة حكم تيمورتاش نويان عن عدالة وهدوء نسبي ، ولهذا السبب كان يُدعى «المهدي» ، ونجم عن التمرد ضده فراره إلى مصر سنة ٧٢٨هـ/١٣٢٨م ، فبدأ الانهيار أكثر من أي وقت مضى .

تكوين الإمارات وتتريك تخوم البلاد

على الرغم من أن الدولة السلجوقية تفتتت تحت الضغط المغولي فقد بدأت حقبة جديدة من النشاط والتتريك مع ظهور واستقلال أمراء الأطراف التركمان . ذلك أن التركمان الفارين من هول المغول دخلوا الأناضول في أعداد كبيرة مثلما حدث زمن الفتح الأول . وقد ازدادت هذه الهجرة كثافة بسبب السكان البدو وزاد الضغط على المنطقة البيزنطية . وشرعوا سريعًا في الانتشار وبدأوا فتوحات جديدة ، ولقد كان من المستحيل على الامبراطورية البيزنطية الممزقة – والتي كانت في انهيار – وقف هذا السيل الجارف من التركمان القادمين من تركستان أمام المغول عن طريق آذربيجان إلى كل أجزاء الأناضول . ومن الحقائق أنباء تروي لنا كيف استوطن الترك في المنطقة البيزنطية بوصفهم مهاجرين بالإتفاق مع القساوسة الأرثوذكس ، وهذا أمر له مغزاه في كشف الاضمحلال الروحي للبيزنطيين . كما أن استقرار وانتشار التركمان على ساحل البحر الأسود وقيليقية قد اتبع العملية نفسها .

حكمت دولة السلاجقة – تحت السيادة العليا للخانات – وسط الأناضول وسهولها . بيد أن التركمان كانوا جميعًا أقوى على التخوم والجبال، وقد اتخذ المتمردون والمطالبون بالعرش من بين أمراء السلاجقة ورجال الدولة ، إبان المحنة ، ملجأ مع هؤلاء التركمان . فعلى سبيل المثال ، تمرد أحد الأمراء ، يدعى قلج أرسلان ، ضد السلطان مسعود الثاني ٦٨٢–٦٩٨هـ /١٢٨٣–١٢٩٨م وبمساعدة التركمان أثار اضطرابًا كثيرًا لدولة السلاجقة . كما أن عددًا كبيرًا من القادة الدينيين ، الشيوخ وبابات التركمان (مدرسو الصوفية) الذين فروا أمام المغول من تركستان وفارس وآذربيجان ، اتخذوا لهم من التخوم مأوى وحولوا نصف التركمان الشامانيين إلى الإسلام . وعن طريق هذا العمل دعموا الإسلام . وأنشأوا هدفًا ساميًا للحرب المقدسة في سبيل

الدين على حدود البلاد . ولهذا السبب فإن فتوحات التركمان كانت تسمى بالحروب في سبيل الدين (تُلفظ ، غزا) أما أمراء التركمان من محاربي الحدود فيعرفون باسم (غزاة الأوج) وكان هذا سبباً في أن هذه المناطق الحدودية كانت حافلة بالدراويش والزوايا .

حينما كانت الدولة السلجوقية تدخل مرحلة النهاية في وسط الأناضول كانت الإمارات التركمانية المستقلة تتشكل على الحدود . وقد تشكلت هذه الإمارات عادةً وفقاً لأعراف الدولة السلجوقية ، بالإضافة إلى تقاليد الأتراك البدوية . واعترفوا بالسيادة العليا للسلاطين السلاجقة والسادة الخانيين . وحصل امراؤها منهم – على سبيل المثال – على شعارات السلطة مثل خلعة التشريف والعلم والتقليد ، ولقب غازي ، ولكنهم –في الحقيقة– كانوا مستقلين، بل وتمردوا ضد دولة السلاجقة ، وغالباً ما تعاونوا فعلياً مع سلطان مصر وتسلموا منه شعارات السيادة . وأقدم هذه الإمارات وأكثرها أهمية كانت الإمارات القرامانية . فلم يفتح القرامانيون الأراضي الأرمنية في قيليقية فقط ، بل قاتلوا أيضاً ضد هيمنة المغول بمساعدة وتشجيع السلطان المملوكي بيبرس . وقد زحف حاكمها محمد بك على قونية في سنة ٦٥٩هـ/١٢٦١م ، وفي سنة ٦٧٥هـ/١٢٧٦م مستولياً عليها أخيراً . وقد نادى محمد بك بأحد أعضاء الأسرة السلجوقية سلطاناً – والذي أطلق عليه مؤرخو السلاجقة بإزدراء اسم البخيل – وخلال مدة حكمه جعل من اللغة التركية لغة رسمية بدلاً من الفارسية ، وذلك لأول مرة في الأناضول . ومع ذلك فقد هُزِم القرامانيون بواسطة الجيش السلجوقي وتراجعوا إلى قرامان ، لكنهم استقروا – بعد سقوط الأسرة الخانية سنة ٧٣٦هـ/١٣٣٥م – في قونية كأقوى الإمارات الأناضولية ، واستحقوا أن يكونوا ورثةً للسلاجقة .

أما دولة كرميان التي جاءت الثانية في الأهمية ، فقد تشكلت في

كوتاهية سنة ٦٨٢هـ/١٢٨٣م وصارت نواة لإمارتي آيدن وصاروخان اللتين تكونتا في غربي الأناضول . وفي هذه الإمارات – وطبقًا لتقاليد الأتراك البدوية الإقطاعية – قُسِّمتْ السيادة بين أعضاء العائلة الملكية . ولعب أمراء آيدن ، فعليًا ، دورًا تاريخيًا مهما بالاستيلاء على الجزر بواسطة اسطولهم وبنزولهم في اليونان والبلقان، يحتلون مكانة مهمة في التاريخ البحري التركي . إضافة إلى أنهم شجعوا التجارة الخارجية بعقد الاتفاقات مع التجار الإيطاليين في أوائل القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي . وعند نهاية القرن السابع/ الثالث عشر قامت أُسَر أشرف أُغلو في بيشهر ، وحميد في ألوبورلو وانطالية ، ومنتيش في موغلي وتركّوا هذه المناطق . وقد أُنْتُزِعَت انطالية عنوة من بيت حميد سنة ٧٦٢هـ/١٣٦١م من طرف ملك قبرص واسْتُرِدَّت سنة ٧٧٤هـ/١٣٧٣م من قِبَل أمير التكه . وعندما سقطت السلالة الخانية نشأت إمارتا إرتين والقاضي برهان الدين في وسط الأناضول واقتسمتا الهيمنة على تلك المنطقة مع القرامانيين .

عندما احتلت الإمارات التركمانية وتَرَكَّت المناطق التي لم تكن تحت الحكم السلجوقي ، فقد قدمت للثقافة التركية خدمة جديرة بالاعتبار ، لأنها –بسبب أصلها البدوي– لم تتأثر بالثقافة الفارسية . إذ أن اللغة التركية نُظِرَ إليها كلغة صالحة للتأليف الأدبي قرب نهاية الحكم السلجوقي فقط . وقد حُسِّنت باستعمالها في الكتابة والترجمة وكفلت لها تلك الإمارات الرعاية . وتوضِّح إمارة جاندار أوغلو – التي نشأت في قصطمونية – الجهد الجدير بالاعتبار في هذا الحقل . وقد زينت عواصم هذه الإمارات بآثار باقية ومبان متشابهة . وفي منتصف هذا القرن انشأ بيت دولغادر في البستان ومرعش ، وبيت رمضان في أدنه وجُكُروفا (قيليقية) إمارات كذلك . وعلى الرغم من أن جاليات تركمانية أقامت في قيليقية منذ بداية القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي إلا أنها أُمتُصَّت من قبَل المملكة الأرمنية في قيليقية . وزاد

السلاجقة والقرمانيون ، وخصوصاً المماليك ، توطين التركمان في هذه المناطق. وتحولت جميع هذه القبائل التركمانية ، التي كانت بدوية أصلاً ، إلى مُقيمة ثابتة في فترة قصيرة من الزمن . أما قبيلتا كاراكوينلو ، وأك كوينلو اللتان قدمتا إلى شرقي الأناضول كنتيجة للفتح المغولي ، فقد أنشأتا دولتين وحافظتا على خصائصهما البدوية أكثر وأطول من الأخرى .

وهكذا – في القرن الذي تلى سقوط الخانيين – قُسِّمَت الأناضول بين هذه الإمارات . والمنطقة الوحيدة التي لم تُحتل من قبل الترك كانت في شرقي البحر الأسود ، في طرابيزون ومركزها . وبرغم أن التركمان شرعوا ينحدرون إلى هذه السواحل مخترقين أعالي جبال البحر الأسود ، فإن هذه المنطقة في الحقيقة – فُتِحَت وأُسْتُعْمِرَت من جانب القبيلة الغزية المسماة جِبني ، التي تتبعت الساحل من سامسون . أما القبيلة المسيحية المحلية جان فقد اضمحلَّت في نهاية الأمر . وفي المناطق الساحلية كوِّنت إمارات صغيرة . ووصل التركمان إلى غيرسون في سنة ٧٠٢هـ/١٣٠٢ م . أما الإمارة العثمانية فبدأت أكثر تواضعاً في الأناضول ، ونمت سريعًا بفضل عوامل معنوية وشروط جغرافية معينة . وأخيراً خلقت الوحدة السياسية تدريجيًا بضم الإمارات الأناضولية ، وتحولت إلى إحدى أعظم الأمبراطوريات في التاريخ . وعلى الرغم من أن تقسيم الأناضول بين الإمارات أثار الطموحات في أوربا إلى حروب صليبية جديدة ، فإن حرب المئة عام وقوة العثمانيين حالت دون تجسُّد هذه المشروعات .

الدولة السلجوقية والسكان

لقد اعتبر السلاجقة والأمراء الأناضوليون – مثل أتراك الكوك الشامانيين (٥٥٢–٧٤٤م) وخانات الكارا (٩٣٢–١٢١٢م) والسلاجقة العظام قبلهم – الدولة ملكًا مشتركًا للعائلة المالكة . وبسبب ذلك كانت الوحدة

السياسية تتمزق عادة . كما أن وفاة الحاكم كانت تُسبب النزاع الأسري . والدولة العثمانية هي الوحيدة التي قامت منذ بدايتها بتركيز السلطات ، ومنعت تلك الانقسامات السياسية بين أعضاء العائلة الملكية . وبرغم ذلك فإن التطور نحو المركزية يمكن أن يكون مُلاحظًا تحت حكم السلاجقة الأناضوليين بعد قلج أرسلان الثاني . وتطبيق هذه السياسة خارج نطاق أفراد العائلة الملكية منذ نشوء الدولة له أيضًا مغزاه . فالسلاجقة العظام منحوا الأقاليم الكبيرة كإقطاعات لكبار أمرائهم ، الذين تمتعوا بالاستقلال الإداري والسياسي فيها ، وأحيانًا شكلوا دولاً خاصة بهم وسكّوا أسماءهم على العملة ونوهوا بها في الخطبة . ولكن في الأناضول ، لم يوجد نظام الاقطاع على هذا المقياس وعلى هذا الطراز أبدًا . أما الزعماء العسكريون (يلفظ سوباشي) الذين تزعموا الجيوش الإقليمية والمحلية في الأناضول فلم يكونوا سادة شرعيين للجنود -الذين حازوا اقطاعات في الأماكن التي تخصهم - وإنما قادتهم فحسب . ولهذا السبب لم تؤدِ الاقطاعات الى الإنقسام السياسي في الأناضول ولكنها أدّت إلى الأساس لنظام التيمار العثماني . وقد امتلك السلاجقة الأناضوليون جيشًا مركزيًا من ١٢ر٠٠٠ جندي يتألفون من الأتراك المُشْترين أو الأسرى المسيحيين الذين كانوا قد دُرِّبُوا في مدارس خاصة بالعاصمة والمدن الأخرى. وقد شُكِّلَت فيالق الإنكشارية العثمانية على غرار هذا النمط السلجوقي . وبالإضافة إلى هؤلاء كانت توجد كتيبة من المرتزقة من الفرنجة والجورجيين ومسيحيين آخرين ويقيمون أيضًا في العاصمة . على أن القوات المسلحة الحقيقية وإدارة البلاد كانت تقوم على كاهل قوة من ١٠٠ر٠٠٠ تركي هم مُلاَّك الإقطاع الذين كانوا ينفقون عن طريق جمع الضرائب من السكان المحليين .

ومنذ وقت مبكر ، كعهد سليمان الأول ، وزّع السلاجقة الأراضي العائدة للإرستقراطيين البيزنطيين ، أو الممتلكات المهجورة ، بين طبقة الفلاحين

وعبيد الأرض ، وبذلك منحوهم الأرض والحرية . ومن ناحية ثانية ، وطبقًا للعرف البدوي القديم وقانون الفتح الإسلامي ، أبطل السلاطين الملكية الخاصة للأرض [ما عدا بساتين الفاكهة] بإعلان ملكية الدولة للأناضول التركية (الميري) ، وتركوا جزءًا كبيرًا من الأرض للفلاحين حيثما يستطيعون العمل . وبفضل نظام الدولة هذا – الذي كان القاعدة الزراعية السلجوقية والعثمانية لسياسة الأرض – صار توطين السكان المحليين والمهاجرين أكثر سهولة . وكان الانتاج الزراعي مكفولاً ، وأصبح تتريك الأناضول ممكنًا . وقد أسهم هذا النظام تحت سيطرة رجال الإدارة العسكرية في تأسيس نظام اجتماعي قوي ومتناسق ، ومنع تشكيل طبقة ارستقراطية مهيمنة على الأرض ، وحال دون استمرار حالة الفلاحين على سابق عهدها من العبودية . وقد استمر هذا النظام حتى منتصف القرن التاسع عشر بدون تغيير أساسي .

تمخض عن الفتح التركي ، والهجمات المضادة للبيزنطيين والصليبيين ، والخلافات الداخلية ، نقص في السكان الترك والأهالي الأصليين ، وجلاء عن بعض الأماكن ، وتدهور في الانتاج ومصدر الدخل . ونظرًا لأن الأكثرية من الأتراك ظلوا بدوًا خلال القرن الأول للاستقرار – كانوا يستقرون في النهاية شيئًا فشيئًا – فقد كانت الدولة السلجوقية في حاجة شديدة للفلاحين الأهالي، ولهذا السبب ، فإن الحكام الترك لم يحموا المزارعين المسيحيين فحسب بل أجلوا الفلاحين المحليين من الأراضي المُجْتاحَة إلى بلادهم الخاصة . وقد شرع السلطان مسعود ، وقلج أرسلان الثاني ، والملك محمد الدانشمندي ، وياغي بازان ، والأراتقة ، في ترحيل وتوطين أعداد تتراوح فيما بين ١٠ر٠٠٠ إلى ٧٠ر٠٠٠ شخص لهذا الغرض . والترحيل الذي قام به كيخسرو الأول سنة ٥٩٢هـ/١١٩٦م في منطقة المياندر يُعطي توضيحًا لفكرة الترحيلات هذه ، إذ إنه قسَّم جمهورًا كبيرًا من الناس من ٥٠٠٠ شخص إلى مجموعات بحسب أوطانهم وعشائرهم ، وكُتبت أسماؤهم في سجل وجعلهم يستقرون في

ضواحي آكشيهير بإعطائهم القرى والمساكن ، وبذور الزراعة ، والأدوات ، والحقول . وأعفاهم أيضاً من الضريبة لمدة خمس سنوات . وعندما سمع المسيحيون الآخرون برخائهم الاقتصادي تاقوا إلى الدخول تحت حكم الإدارة السلجوقية ، وبالتالي يفرون من الاضطهاد البيزنطي .

أما الكتاب المسيحيون الذين وصفوا الأتراك خلال سنوات الفتح الأولى بالنَّهَّابين المرعبين ، فقد بدأوا فيما بعد يتغنون بالثناء على سلاطين السلاجقة بدرجة ملفتة للنظر . وكان هذا نتيجة طبيعية لعدالتهم وكفاية إدارتهم ، بالإضافة إلى شفقتهم وحمايتهم لرعاياهم المسيحيين . كما أن التسامح الكبير للسلاجقة ، والحرية التي أنعموا بها على المسيحيين ، جعلتهم آخر الأمر موالين للسلاجقة وزاد بغضهم لبيزنطة . وفي الرسالة التي كتبها قلج أرسلان الثاني لصديقه السرياني بطريرك ملطية ، أخبره أنه بفضل صلواته أحرز انتصاراته على البيزنطيين . وكان لدى الأميرة الجورجية قسِّيس وكنيسة صغيرة خاصّة في البلاط السلجوقي . كما عقد السلاطين المناظرات والمناقشات التي تناول فيها العلماء مختلف العقائد التي انحازوا إليها . وهذه أمثلة قليلة فقط توضح تلك الدرجة من الحرية والتسامح الديني . وقد أنشأ أتراك الأناضول حياة متناسقة بين مختلف الأجناس والأديان . وفي الحقيقة أن الأتراك المسلمين والمسيحيين المحليين لم يتقاسموا فقط الحياة المشتركة والثقافة ، بل قاموا برحلات إلى نفس الأماكن المقدسة . أما الصوفيون المشهورون من ذوي القدرة على الفهم العام مثل جلال الدين الرومي ويونس إيمري فكانوا نتيجة لمثل هذا المناخ الاجتماعي . وقدِم الصوفي الكبير محيي الدين بن عربي إلى الأناضول واستقر في قونية لكي ينعم بالحرية الفكرية . أما المريدون الذين انتسبوا أصلاً إلى أديان ونحل مختلفة فقد اتحدوا وانضووا حول جلال الدين الرومي وخلفائه . وعندما تُركت ملطية دون حكومة

إبان الغزو المغولي اتحدت الجاليتان الإسلامية والمسيحية تحت إدارة البطريرك السرياني بقسم الولاء .

أضعف الغزو المغولي الانسجام بين المسلمين والمسيحيين ، إذ ان الميل التركي لتأييد السلاطين المصريين جعل المغول الوثنيين يعتبرون المسيحيين أكثر تأييداً . وتسبب هذا في عدة حوادث من جانب الأرمن . على أن مثل هذه الحوادث كانت تقمع قبل أن تخرج عن نطاق السيطرة . واشتملت الفتوحات على مظاهر هدامة أثناء تكوين الإمارات ، إلا أن الترسيخ وحتى على مستوى النظام السياسي الأصغر مكّن من استمرار الإدارة وانسجام البنية العامة . ومما له مغزاه أيضاً أن ذلك التقليد المتعلق بانفاق المال والتمييز في المعاملة إزاء المسيحيين واليهود في البلاد الإسلامية لم يكن مطبقاً في الأناضول السلجوقية ، وهذه السياسة تُفسر الوجود المهم للسكان المسحيين هناك . وطبقاً للوثائق العديدة التي بين أيدينا فإن كثافة السكان المسيحيين في الأناضول تزيد من الغرب إلى الشرق على عكس اتجاه الهجرة التركية . أما التتريك الراسخ للأناضول الوسطى - بصرف النظر عن منطقتي قونية وقيصرية - فيمكن أن يكون مشروحاً بالأسباب التاريخية والجغرافية . فهناك وثائق لا ريب فيها وأسماء قرى تركية تشير إلى هذا الوضع العرقي . وفي القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي ، وفي ظل الإمارات ، فإن الأجزاء الغربية والشمالية من الأناضول قد تُرِّكَت بالكامل أكثر من الأجزاء الشرقية ومن الأجزاء الوسطى الرئيسية . وكثيراً ما كان التحول يتم في وقت قصير ، وكانت تلك إحدى نتائج الغزو المغولي .

على الرغم من أن الترك أسلموا قبل قرن من وصولهم إلى الأناضول فإن ذلك التحول - بسبب أسلوب حياتهم البدوية - كان لا يزال سطحياً جداً ، وتحت المظهر الخارجي للإسلام ظلت تقاليدهم ومعتقداتهم الشامانية القديمة

على قيد الحياة . إذ أن بابا اسحاق ، وباراك بابا ، وصاري صالتوق ، وبابات التركمان الآخرين ، كانوا استمراراً للشامانيين القدماء أكثر منهم شيوخاً مسلمين . لذلك أثَّرت الشامانية في الجماعات والطوائف الدينية التركية المسلمة تأثيراً عميقاً عن طريق جزء جذاب من شعائرهم الدينية . فالرقص والموسيقى كانت تُستخدم لإثارة النشوة الدينية . ولم يمكن التخلص منهما على الرغم من النقد القاسي للعلماء المسلمين . وغالباً ما استدعى الحكام السلاجقة علماء الدين والقضاة والأطباء والفنانين والشعراء من البلدان الإسلامية الكبيرة ، كما بنوا المدارس والمستشفيات والمنشآت الدينية لتطوير وتقدُّم الثقافة الإسلامية . وعندما بنى قلج أرسلان الثاني مدينة أقسراي كقاعدة لعملياته العسكرية ، استدعى العلماء والفنانين والتجار من آذربيجان وجعلهم يستقرون في المدارس والخانات والأسواق التي بناها حول قصره . ودفع الغزو المغولي عدداً كبيراً من العلماء والفنانين إلى أن يهاجروا إلى الأناضول ، حيث أسهموا في تطور الثقافة الإسلامية . وفي تركيا السلجوقية ، كانت اللغة الرسمية والأدبية الفارسية ، وكانت لغة الدين والتعليم العربية ، وكانت لغة الناس اليومية التركية. أما تعليم الأدب التركي الإسلامي واللغة المكتوبة التي بدأت في وسط آسيا فلم تصل إلى الأناضول . لكن اللغة المكتوبة – التي بدأت لأسباب تعليمية – هيأت مولداً متيسراً للأدب التركي الجديد في القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي ، وتطور خلال فترة الإمارات . وعلى أية حال فإن ملاحم البطّال غازي ، ودانشمند غازي ، وقصص الأُوغوزنيم والديدكوركوت ظلت على قيد الحياة بين الغزاة كأمثلة من النصوص الشفوية للأدب التركي منذ القرن الثاني عشر الميلادي .

التقدم الاقتصادي والثقافي لتركيا السلجوقية

كان الضعف الاقتصادي والاجتماعي للأناضول البيزنطية ناشئًا عن الصراع البيزنطي الإسلامي الناتج عن السيطرة العربية على البحر المتوسط. على أنه لا يوجد دليل على هذا الضعف بسبب انعدام الآثار والوثائق عن الفترة البيزنطية القابلة للمقارنة مع الفترات الهلينية والرومانية والسلجوقية. وطبقًا لبعض الآثار الجغرافية العربية كان شرقي الأناضول – الذي كان داخلاً ضمن حدود الحضارة الإسلامية – مستثنى من هذا الحكم. ولما كان ميناء البحر المتوسط انطالية، وميناء البحر الأسود طرابيزون قد تاجرا مع التجار المسلمين فيما بعد، في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي، ظهرت إشارات على نشاط تجاري. وحتى القرن السابع / الثالث عشر، كان وسط الأناضول – الذي تطور في ظل الإدارة السلجوقية – أكثر تخلفًا في حياته الاجتماعية من شرقي الأناضول. وكانت إحدى التفسيرات عن سبب تجريد السلاطين السلاجقة الحملات نحو الشرق هو أن هذا كان أعلى درجة في الحضارة. وهذا أيضًا يشرح لماذا كان المسيحيون في الشرق وبخاصة السريان أكثر دفاعًا من البيزنطيين في وسط الأناضول. وبعد الفتوحات العربية الإسلامية أنجز العرب تأليف الحضارة الإسلامية من خلال احتكاكهم مع المسيحيين بالشرق الأدنى. ومثل هذا التأليف لم يكن ممكنًا في البلاد السلجوقية، لأن الحضارة الإسلامية في ذلك الوقت ما تزال حية بل وفي طور التقدم. إضافة إلى أن الأتراك افتقروا إلى الفرص المحلية المشابهة في وطنهم الجديد، إذ ان الحضارة السلجوقية تعتبر امتداداً للثقافة التركية الإسلامية أكثر منها تركيبًا مع العناصر الأناضولية. فمع أنه كان يوجد الكثير من الرسّامين اليونان في الأناضول، فالحقيقة، أن مما له مغزاه، أن أحد التأثيرات الأيغورية من آسيا الوسطى يمكن تتبعها بوضوح على الصور الزيتية الحائطية في قونية وقوباد آباد. وبرغم ذلك، وبالإضافة إلى الكثير من

التأثيرات الثقافية للأتراك على الأرمن المحليين ، واليونانيين ، والجورجيين ، والسكان الأصليين المضارعة للتأثير اللاتيني ، يمكن أيضاً تتبع سير الثقافة التركية الأناضولية .

إن فتح الأناضول لتجارة العبور بين الشعوب المسلمة والمسيحية ، وتحولُّها إلى بلد متقدم وثري ، كان أحد النتائج السعيدة للفتح السلجوقي . وفي الحقيقة أنه حالما صارت الأناضول جزءاً من العالم الإسلامي زالت الموانع التي كانت تعوق التجارة . وبدأت حقبة النمو الاقتصادي . بيد أن الفتوحات التركية والبيزنطية والصليبية التي استمرت زهاء قرن سببت تدهوراً اجتماعياً واقتصادياً خطيراً في الأناضول حتى سنة ٥٧٢هـ/١١٧٦م . ومع انتصار قلج أرسلان الثاني في تلك السنة – ثاني تاريخ حاسم في تاريخ العلاقات السلجوقية البيزنطية – توطدت الوحدة السياسية والأمن الخارجي للأناضول . وتركزت طرق المرور المهمة للتجارة العالمية في تلك البلاد . والثورة التي حدثت في البحر المتوسط لعبت دوراً مهماً في هذا التغيير . إذ إن انتقال السيطرة البحرية هناك من المسلمين إلى الأوربيين ، بعد القرن الخامس الهجري / الثاني عشر الميلادي ، والزيادة في التجارة مع الشرق المصاحبة للحروب الصليبية ، والنمو الاقتصادي والاجتماعي لأوربا الذي أعقب ذلك ساعد على تطوير طرق القوافل المهمة في الأناضول . فالسلاطين من ذوي البصيرة النافذة استخدموا قوتهم العسكرية لحماية الطرق والموانئ ، حتى نقلوا إلى الخارج السمعة الاقتصادية والسياسة التجارية . والأغراض الرئيسية من هذه السياسة هي أن تُصَان الطرق إلى موانئ البحر الأسود والبحر المتوسط ، وطرق القوافل ، وأن تُزود بالوسائل المريحة في أماكن الاستراحة ، وأن تُعقد الاتفاقيات التجارية مع الجمهوريات الإيطالية وملوك قبرص ، وأن تُوضع تعرفة جمركية معتدلة لتشجيع التجارة ، حتى أن السلاطين أنشأوا نوعاً من حالة التأمين بدفع تعويضات مالية للتجار الذين

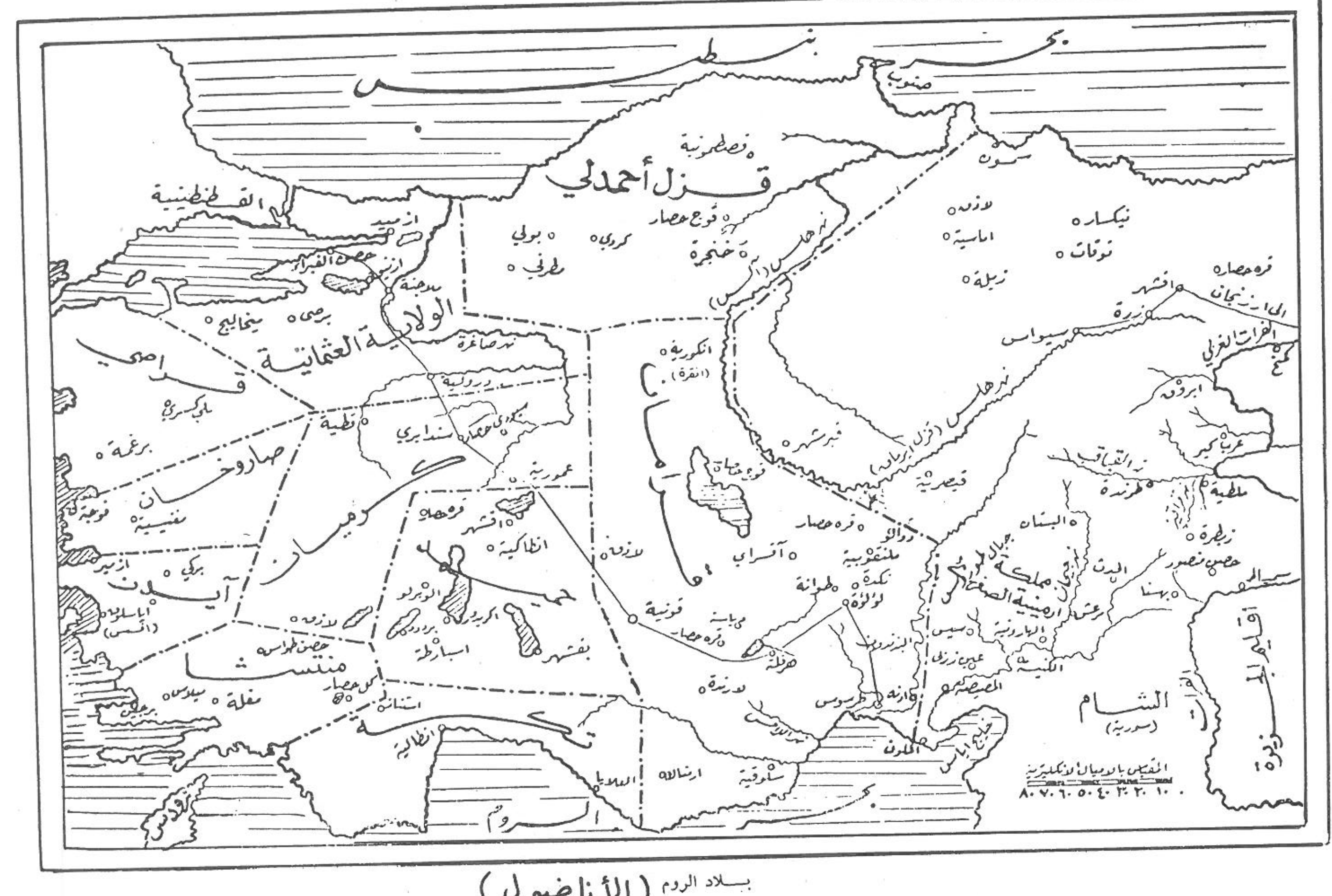
تكبدوا ضرراً من جانب قُطاع الطرق وهجمات القراصنة . وبفضل السلاجقة ، تطورت النُظم والأعراف التجارية مثل الشيكات ، وبالتحديد طرق إقراض النقود بفائدة والصفقات البنكية وانتقلت إلى أوربا العصور الوسطى .

كان التنظيم المبتكر من جانب الدولة السلجوقية من أجل سلامة وراحة القوافي التجارية مدهشاً وفعالاً أيضًا . فالحقيقة أن الدولة حمت القوافي التي تحمل البضائع النفيسة عن طريق تعيين قوات أمن تحت قيادة رئيس القافلة ومرشدها . وبُنيت الخانات في أماكن الاستراحة لهذه القوافل . وقد بنيت من قبل السلاطين والوزراء ، وأُوقفت عليها الأوقاف الأمر الذي ساعد على توفير كل ما يحتاجه المسافر . وقد استطاع المسافرون أن يمكثوا في هذه الخانات مع خيولهم أو جمالهم نحو ثلاثة أيام بدون أي مقابل ، فوجبات الطعام كانت مجانية كذلك . والقاعدة في ترتيب تلك المآثر هي تقديم الطعام للجميع ، مسلمين أو مسيحيين ، غنيًا أو فقيرًا ، حرًا أم عبدًا ، حيث يُعاملون جميعًا بالتساوي . وفي الخانات الكبرى يستطيع المريض الحصول على المعالجة أيضًا . وفي تلك الخانات قلاع كالأبراج ذات بوابات حديدية لتكون مأوى لكبار التجار . على أن فكرة تقوية هذه الخانات جاءت بسبب حادثة بدايتها في القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي ، حينما أخفق قائد مغولي في القبض على زعيم تركي ، بعدما حاصر خان كيقباذ عند آقسراي مع عشرين ألف رجل لمدة شهرين .

زاد تطوّر التجارة الدولية الإنتاج الزراعي والصناعي. وفُتِحَت المناجم ، وصُدِّرت المعادن إلى أوربا ، وأُرْسِلت أصواف ماعز أنقره إلى انجلترا وفرنسا لصُنْع القماش والقبعات منذ وقت مبكر من القرن السابع / الثالث عشر ، وصُدِّرت البضائع المصنوعة والسجاد إلى البلاد الأخرى . أما عدد سكان المراكز أمثال قونية ، وقيصرية ، وسيواس ، وأرضروم فكانوا

فوق ١٠٠٠,٠٠ نسمة في هذه المدن . وفي ميناءي انطالية وسينوب كانت توجد جاليات تجارية إيطالية وفرنجية ويهودية ، وقنصليات ، بالإضافة إلى فنادق وكنائس . أما الإمارات الأناضولية التي ورثت التقاليد السلجوقية فقد صانت هذه الأعراف التجارية أيضًا . بيد أن هذه الإمارات – من ناحية أخرى – لم تستطع سك النقود الذهبية فاستعملت النقود السلجوقية والبندقية ، فارضة حظرًا على تصدير العملة . أما المساجد والمدارس والمستشفيات والخانات والأضرحة ، فهي تُعطي أمثلة حية على التقدم الاقتصادي والاجتماعي للسلاجقة . ولم تقتصر عنايتهم بالمسافرين فقط ، بل عُنوا أيضًا بالمرضى والفقراء والدراويش فقدموا لهم الملاجئ والمطاعم والخوانق بدون مقابل . أما فن العمارة العثماني – ذو الجلال السياسي الخاص سيما في التبليط بالحجارة – فقد أُستنبط من الفن السلجوقي وتعاليمه .

وطبقًا للأرقام المعطاة من جانب حمد الله القزويني فقد بلغ الدخل السنوي لدولة السلاجقة في سنة ١٣٣٦م – والمتضمنة لإقليم الموصل – نحو ٢٧مليون دينار . أما الإمارات ، وأرمينية الصغرى ، والسواحل الشرقية للبحر الأسود والبحر الأيجي الخاضعة للحكم اليوناني ، فلم يشملها الرقم الآنف الذكر . وبسبب هذا الازدهار الاقتصادي فقد وُصِفَت تركيا في بعض الآثار الأدبية الأوربية الوسيطة كبلاد ذات غنى وكنوز خرافية . وبعد حقبة الأزمات من سنة ٦٧٦هـ/١٢٧٧م شهدت تركيا انتعاشًا نسبيًا في حقبة الإمارات . على أن اضمحلال الحضارة الإسلامية وبخاصة في البلاد الواقعة جنوب وشرق تركيا بعد القرن الثامن / الخامس عشر ، وتحوّل طرق التجارة الرئيسية من البحر المتوسط إلى المحيطات بعد الكشوف الأوربية ، وأخيرًا تمركز الامبراطورية العثمانية في استانبول ترك الأناضول خارج هذه التطورات الجديدة . إذ إن أوضاع وظروف الفترة السلجوقية لن تعود أبدًا .



بلاد الروم (الأناضول)

نقلاً عن لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية

ردمك : ٩٩٦٠-٣٤-٤٠٠-٢

مطابع الصفا/مكة/٥٥٦٢٨١٠